
اجاثا كريستي
العميل السري

أجاثا كريستي
{1976 - 1890}

-الكاتبة التي ترجمت رواياتها إلى **103** لغات.

– بيع من كتبها أكثر من **900** مليون نسخة باللغة الإنجليزية وحدها.

– كاتبة روايات بوليسية، ولدت في إنجلترا، تتميز عن جميع الروائيين البوليسيين، مما نصَّبها ملكة عليهم جميعًا. تميَّزت أيضًا بأنّ أشخاص رواياتها أشخاص عاديّون، ولكنّهم تعرضوا في الرواية لظروف أزالت القناع الحضاري عن الوحوش القابعة في أعماق كل إنسان. كذلك لم تلجأ الكاتبة العظيمة إلى عنصر الجنس في رواياتها، على عكس ما اتبعه الآخرون. ولم تهدف إلى الإثارة، ولا تلجأ إليها. وروراياتها تضمَّنت أيضًا أهدافًا إنسانية فحواها أنّ (الجريمة لا تفيد) وأنّ الخير هو المنتصر في النهاية.

العميل السِّرِّي
N or M?

تدُور أحْداث هذه القصَّة في أَثْناء الحروب العالميَّة الثَّانية، وهي من أفْضل المَغامرات المحبَّبة إلى الزَّوجَين «برسفورد» اللذين يعملان لَدَى وكالة الاستخْبارات السِّرية للدِّفاع عن بلادهما واكْتشاف الخائنين من ذَوي المَناصب الرَّسمية.
وقَدْ كانت إحدى كلمات عميل الحكومة في أثناء مَوْته أُغْنية «سُوزي N أو M»؛ ولذلك، فَمَنْ مِنْ ضُيُوف مَنْزل «سان سيرسي» الواسع M وأيهما N؟

ثمن الكتاب

لبنان	5000 ل.ل.	قطر	10 ريالات
سوريا	150 ل.س.	عُمان	1.5 ريال
الاردن	2 دينار	مصر	10 جنيهات
السعودية	10 ريالات	المغرب	30 درهما
الكويت	1 دينار	ليبيا	3 دنانير
الإمارات	10 دراهم	تونس	4 دنانير
البحرين	1.5 دينار	العراق	4000 دينار

ISBN 995338325-1
9789953383255

العميل السري

برنارد الأسطه

يقدّم

الرواية المعرّبة

العميل السري

(64)

تاليف الكاتبة والأديبة العالمية

أجاثا كريستي

تعريب الأديب

عمر عبد العزيز أمين

الناشر

دار ميوزيك للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع ش. م. م

الإدارة العامة والتوزيع

تليفون 666 212 9 961 00 فاكس 665 212 9 961 00

ص.ب 374 جونيه – لبنان

www.inter-press.org Email:info@inter-press.org

وكلاء التوزيع

المركز الدولي – دار البشير

تأليف

Agatha Christie

الإسم الأصلي للرواية

N or M ?

(1941)

الغلاف بريشة الفنان

عبد العال

- 1 -

نحن في ربيع عام 1940 .

رفعت السيدة "**برسفورد**" وجهها إلى زوجها حين دخل الغرفة وقالت :

– لست أدري سببًا يا عزيزي "**تومي**" يجعلك متجهم الوجه على هذه الصورة.. ماذا هناك؟

– لم أجد عملا حتى الآن.. سواء في الجيش أو البحرية أو الطيران أو حتى وزارة الخارجية.. إن الجميع يجيبون عن سؤالي بنفس الإجابة: «فيما بعد... قد نحتاج إليك». حتى أصبحت لا أطيق سماع تلك الإجابات.. رجل في السادسة والأربعين.. يعامل كأنما لا مقدرة له على العمل..! هذا أمر لا يطاق..

– إنها نفس المسألة بالنسبة إليَّ.. إنهم لا يريدون ممرضات في مثل سني.. إنهم يأخذون فتيات لم يرين جرحًا في حياتهن.. لقد نسوا أنني عملت ممرضة من عام 1915 إلى عام 1918، وأنني عملت أيضا في قيادة السيارات..

– يعزيني أن ابنتنا "**ديبورا**" قد وجدت عملا فيها.. وكذلك ولدنا "**ديريك**" ولو أن المساعدة المالية التي يمدني بها تحز في نفسي وتشعرني بأنني أصبحت ذلك الرجل المسن..! هل أصبحنا لا فائدة ترجى منا..؟ إني أفكر أحيانًا أن القطار قد فاتنا.

فظهرت أمارات الغضب على وجه "**توبنس**"، وتركت كرة الصوف تتدحرج من حجرها ثم قالت:

– هل فاتنا القطار حقيقة ؟ رباه!!

– ربما.. ولكن يعزيني أننا كنا موضع اهتمام الجميع في وقت من الأوقات.. فقد اختطفني الألمان كما تذكرين، واحتلت للنجاة بمعجزة، كما تتبعت آثار ذلك المجرم الخطير حتى قبض عليه.. وتلك الفتاة التي أنقذنا حياتها.. وأوراق المعاهدة السرية المهمة.. لقد شكرتنا الأمة والدولة حينذاك..

– والآن أصبح السيد والسيدة "**برسفورد**" لا يحتاج أحد إلى مجهوداتهما..

– لا فائدة من هذا الحزن يا عزيزتي.. إنه يؤذيك..

– لقد أخلف السيد "**كارتر**" ظننا فيه..

– لا تنسي أنه كتب لنا خطاباً في غاية الرقة..

– لم يكن فيه ما يبعث على الأمل.

– لست أظن أنه يستطيع أن يفعل شيئًا في هذه الأيام.. ثم إنه يقيم في "**اسكتلندا**" الآن ليسلي نفسه بصيد السمك..! لقد أصبح هو الآخر مسنًّا.

– ربما يحتاجون إلينا في عمل بإدارة الاستعلامات؟

– لا أظن، فإن أعصابنا لم تعد تحتمل..

ورن جرس باب الشقة.. فقامت "**توبنس**" وفتحت الباب.. وقال القادم:

– السيدة "**برسفورد**"؟

– نعم..

– إنني "**جرانت**".. أحد أصدقاء لورد "**ايسامتون**".. وقد طلب إلي زيارتكما أنت وزوجك.

– أوه.. تفضل بالدخول.

وسارت أمامه إلى حجرة الجلوس.. ثم قالت:

– هذا زوجي.. وهذا السيد "**جرانت**"، إنه صديق السيد "**كارتر**". أعني لورد "**ايسامتون**".

وكان اسم السيد "**كارتر**" – رئيس إدارة الاستعلامات السابق – أسهل نطقًا من لقبه الجديد لورد "**ايسامتون**"، وبعد أن تبادل الجميع التحيات.. قدمت "**توبنس**" كئوس الشراب للرجلين.. وكان السيد "**جرانت**" رجلا لطيف الحديث.. قال بعد فترة:

– سمعت يا "**برسفورد**" أنك تبحث عن عمل؟

– أجل.. هل تعني؟

– لا.. فإن الأعمال يحسن أن تترك للشباب.. أو على الأقل لأولئك الذين تمرسوا فيها عدة سنوات دون انقطاع.. إنما كل ما أعرضه عليك الآن.. هو عمل

في أحد المكاتب.. تخريم أوراق وحفظها في ملفاتها. وما أشبه ذلك.

- أوه..

- إنه شيء أحسن من لا شيء على كل حال.. ومع ذلك أرجو أن تزورني في مكتبي بالغرفة رقم 22 بوزارة المهمات الحربية.. وهناك نستطيع أن نتفاهم.

ورن التليفون، فأسرعت "**توبنس**" ورفعت السماعة:

- مرحبا.. نعم.. ماذا؟

وسمع من الطرف الآخر صوت يتكلم في جزع ولهفة. وتغير وجه "**توبنس**"..

- متى؟ أوه.. عزيزتي طبعًا.. إني سأحضر إليك حالا..

ووضعت السماعة ثم قالت لزوجها:

- "**تومي**"، إنها "**مورين**".

- لقد خمنت ذلك.. فقد عرفت صوتها.

- آسفة جداً.. يا سيد "**جرانت**".. إنها صديقتي.. التوت قدمها، وليس معها من يعنى بها.. ويجب أن أذهب إليها.. أرجو أن تلتمس لي العذر في الانسحاب.

- طبعًا.. سيدة "**برسفورد**".. إنني أقدر ذلك.

فابتسمت له مسلمة.. وتناولت معطفها وخرجت من الحجرة، وسمع الرجلان باب الغرفة يوصد بعنف.. وصب "**تومي**" قدحًا من الشراب لضيفه فتناوله.. وبعد لحظة قال:

- هل تعلم أن خروج زوجتك المفاجئ قد خدمنا؟! فإنه سيوفر الوقت..

لقد اقترح "**ايسامتون**" اسمك.. وقال لنا إنك الوحيد الذي يصلح لتلك المهمة.

- أية مهمة..؟!

- طبعًا.. أنت تفهم.. إن ما سأقوله لك سري جداً.. حتى زوجتك يجب الا تعلم عنه أي شيء.

– لا بأس.. ما دمتم تريدون ذلك.. ولكن لقد كنت أشترك مع زوجتي دائماً.

– إني أعلم ذلك.. ولكن هذه المهمة بالذات.. لك وحدك.

– وهو كذلك.

– وكما سبق أن قلت لك.. ستزعم أمام الجميع أنك كلفت بعمل كتابي في جهة ما بـ"اسكتلندا"، جهة محظور عليك ذكر اسمها، ولا يمكن أن ترافقك زوجتك إليها.. ولكنك في الواقع ستذهب إلى جهة أخرى.. لا شك في أنك قرأت في الصحف عن الطابور الخامس، وتدرك طبعاً ماذا يعني هذا التعبير.

– العدو الذي بيننا.

– بالضبط.. وأحب بهذه المناسبة أن أقول يا "برسفورد"، إن هذه الحرب بدأت وحالة الشعب النفسية متأثرة بنوع من التفاؤل المصطنع.. وإني لا أقصد طبعاً أولئك الذين يدركون الأمور على حقيقتها مثلنا.. فإننا نفهم بلا شك ما وراءنا وما أمامنا كمقدرة العدو العامة وقواته الجوية وتصميمه على القتال، والرابطة الجبارة بين كل عناصر قواته الحربية، ولكني أعني بالشعب، رجل الشارع، الذي تأثر بما سمع أو بما يريد أن يسمع من أن "ألمانيا" سوف تتصدع عما قريب.. وأنها على أبواب الثورة، وأن عدتها الحربية قد صنعت من القصدير، وأن جنودها يتساقطون من فرط الجوع.. إلى غير ذلك.. بينما الواقع يجري على العكس تماماً.

– هذا ما يدركه كل عاقل.

بالضبط ولا تنس أننا بدأنا في أوائل الحرب بلا نظام يلم شعبنا.. وكانت استعداداتنا في غاية النقص، ولعل ذلك يرجع إلى أننا لم نكن نرغب في الحرب، فلم ننظر إلى شتى الاحتمالات بشكل جدي، ولم نحسن الاستعداد لمجابهتها.. وإن كنا بعد مرور أكثر من سنة قد صححنا هذه الأوضاع إلى حد كبير، ووضعنا كلا في مكانه الذي يناسبه، وأصبحنا نوجه الدفة كما يجب أن توجه. ويمكننا أن نكسب الحرب وهذا لا شك فيه إذا لم نرتكب الخطأ الأول.. ونحن لا ننظر

إلى الخسارة كنتيجة لأعمال العدو الظاهرة، كقوة قاذفات القنابل، ولا في تسلط "ألمانيا" الشامل على البلاد التي تستغلها لمصالحها الاقتصادية، واستعمال الألمان لتلك البلاد كمراكز للقفز علينا.. لا هذا ولا ذاك.. ولكن الخطر الذي نخشاه يأتي من الداخل.. من قصة "طروادة".. والحصان الخشبي الذي أدخل إلى أسوارها.. وتستطيع أن تسميه الطابور الخامس إذا أردت.. وهو يتألف من نساء ومن رجال يشغل بعضهم مراكز عالية، والبعض الآخر مراكز من كل لون.. ولكنهم جميعاً يؤمنون بالعقيدة النازية.. ويعملون جاهدين على إحلالها محل وسائلنا البسيطة في الحياة الديمقراطية.. وأهم من هذا كله.. أننا لا نعرف من هم هؤلاء. ولكن بكل تأكيد نستطيع أن نصل إلى العصافير الصغيرة.. فهذا من السهولة بمكان.. ولكن العقبان والنسور.. هي التي تهمنا.. فهناك اثنان – على الأقل – يشغلان وظائف كبرى في البحرية، وأكاد أجزم بأن أحدهما يعمل في مكتب الجنرال "ج".. كما نعلم أن ثلاثة أو أكثر في أهم مراكز سلاح الطيران، وأن اثنين على الأقل في إدارة المخابرات يطلعان باستمرار على قرارات مجلس الوزراء السرية.. إننا نعلم كل هذا لأن الطريقة التي تتسرب بها أخبارنا إلى العدو تدل عليه.

– ولكن.. إنني لا أعرف أحداً من هؤلاء.

– بالضبط.. كما أن أحداً منهم لا يعرفك وهذا هو ما يهمنا. فهؤلاء القوم.. ذوو المراكز العالية يعرفون رجالنا جميعاً.. وقد أرهقتنا محاولات كشفهم أو حتى تضليلهم، حتى وصلنا إلى حالة من اليأس لا نحسد عليها.. فذهبنا إلى "ايسامتون" نستشيره.. وعلى الرغم من أنه لا يعتبر من رجالنا نظراً لمرضه.. ولكنه يعتبر ألمع ذهن عرفناه.. ففكر فيك.. وقال: إن عشرين سنة قد مضت منذ أن تركت العمل في هذه الإدارة.. وانقطعت صلتك بها كما أن شبهك لا يعرفه أحد.. فما رأيك؟

– أقبل..! طبعاً.. ولكن.. ولكن لا أدري كيف يمكن لي أن أفيدكم.

– يا عزيزي "برسفورد".. إن تفكير الهواة وتصرفاتهم هو ما نريد.. فالأمور

تتعقد بالنسبة إلى المحترف.. ثم لا يخفى عليك أنك ستحل محل أقدر رجالنا.

– ماذا..؟

– نعم.. فقد توفي "**فاركوهار**" المسكين في مستشفى "**بريدجت**" يوم الثلاثاء الماضي.. بصدمة لوري، وعاش بضع ساعات بعد الصدمة.. وقد يخيل للعابر أنها حادثة طريق.. ولكنها ليست كذلك.

– أمتأكد أنت..؟

– طبعًا.. وهذا ما يجعلنا نعتقد أنه كان وراءه أثر مهم.. وقد بقي فاقد الوعي بعد الصدمة، وقبل الوفاة بلحظات حاول أن يقول شيئًا.. وكان كل ما سمعناه منه هذه العبارة: «**ن**.. أو.. م.. "**سونج سوزي**"».

– لا أعتقد أن في هذا ما ينير السبيل..!

– قد يكون فيه أكثر مما تظن.. فإن "**ن**" أو" **م**" هو رمز سمعناه قبل تلك اللحظة وهو ينبئ عن اثنين من أهم وكلاء الألمان.. وقد عرفنا بعض الشيء عن نشاطهما في البلاد الأخرى.. وليس لدينا عنهما معلومات كثيرة.. ولكننا نعلم أن مهمتهما هي الإشراف على تكوين الطوابير الخامسة في البلاد المختلفة، وهما يقومان بمهمة ضابط الاتصال بين "**ألمانيا**" وبين الطابور الخامس في أي بلد من البلاد المختلفة، وأغلب الظن أن "**ن**" رجل وأن "**م**" سيدة، وأنهما أعظم من وثق بهما "**هتلر**" بين مبعوثيه.. وقد استطعنا الحصول – في مستهل الحرب – على صورة برقية أرسلت من "**برخستجادن**" جاء فيها: «أرى تعيين "**ن**" أو "**م**" لـ"**إنجلترا**" على أن يمنحا كل السلطات..».

– وماذا عن "**فاركوهار**"؟

– أظن أنه تتبع أثر أحدهما أو كليهما.. ولم نعلم أيهما لسوء الحظ، أما عن كلمة «**سونج سوزي**» فأظن أنها محرفة، نظرًا لما نعلمه من عدم تمكن "**فاركوهار**" من اللغة الفرنسية، وقد وجدنا في أحد جيوبه تذكرة عودة إلى مقاطعة "**ليهامتن**" على الساحل الجنوبي.. وفي تلك المنطقة كثير من «البنسيونات» والاستراحات والفنادق الخاصة.. وبعد التحري وجدنا أن أحدها

يسمى "**سان سوسي**".

– هكذا.. «**سونج سوزي**».. "**سان سوسي**".. فهمت.. وعليّ أن أذهب إلى هناك.. وأرى ماذا أستطيع أن أعمل.

– تمامًا.

– لكن المسألة فيما أرى غير واضحة المعالم.. فإني لا أكاد أعلم ما الذي أبحث عنه؟

– وأنا شخصيًّا لا أعلمه.. وعليك أن تجده، وعسى أن يساعدك الحظ.

– حدثني عن ذلك المكان.. أعني "**سان سوسي**".

– ربما كان كوخًا.. وربما كان شيئًا آخر.. ولعل "**فاركوهار**" كان يفكر في أمر أبعد عن كل ما نفكر فيه.. إن المسألة لا تعدو أن تكون تخمينًا مجردًا.

– وماذا عن "**ليهامتن**" نفسها؟

– إنها كأي من مثيلاتها.. مجموعات من الأكواخ والعشش والفيلاَّت والمنازل الصغيرة، تقيم فيها سيدات، مسنات، وضباط متقاعدون، وعوانس طاهرات.. ورواد غامضون، وربما بعض الجواسيس.. وبعض الأجانب.. إنها تبدو كحقيبة الطباخ.

– و"**ن**" أو "**م**" بين كل هؤلاء؟

– ليس ذلك مما يمكن الجزم به.. فربما وجدت أحد أعوانهما.. ولكني أرجح أن يكون "**ن**" أو "**م**" هناك.. فالمكان لا يرقى إليه الشك.. بيت منعزل في بقعة ساحلية.

– أليس لديك فكرة.. عما إذا كان الشخص الذي سأبحث عنه رجلا أو امرأة؟

– كلا.. وأتمنى لك حظًّا سعيدًا يا "**برسفورد**".. والآن إلى التفاصيل.

عادت "**توبنس**" بعد نصف ساعة فوجدت زوجها وحيدًا يصفر لحنًا وقد بدت عليه أمارات الشك، فقال لها:

– حسن.. لقد حصلت على عمل مكتبي.. في "**اسكتلندا**".. حفظ

مستندات وما شابه ذلك.. إنه لا يبدو عملا مثيراً.

– لكلينا.. أم لك وحدك؟

– أخشى أن يكون لي وحدي.

– اللعنة..! كيف يعاملنا السيد "**كارتر**" بهذه الوسائل الـ..

– إن اختلاط الجنسين غير مسموح به في مثل هذه الأعمال يا "**توبنس**".. وإلا صعب على الموظفين تركيز تفكيرهم في العمل.

– يظهر أنه عمل من تلك الأعمال التي ترهق الأعصاب.. كذلك الذي تقوم به "**ديبورا**" ابنتي.. وإني أرجو ألا ترهق نفسك يا "**تومي**" بقدر الإمكان، فتحطم أعصابك.

– لست من هؤلاء كما تعلمين.

– أرجو ذلك.. ولو أنني أعتقد أنك عرضة لما أقول.. الا يمكن أن آتي معك؟ لا كزميلة في العمل.. وإنما.. كزوجة فقط.. تعد لك طعام العشاء.. و..

– إني آسف.. وكم يؤلمني أن اتركك يا عزيزتي.. على أي حال تستطيعين أن تشغلي نفسك بالـ.. تريكو.

– التريكو.. التريكو. وقذفت بالكرة الصوفية والإبر إلى الأرض، ثم استطردت:

– إني أكره الصوف.. الكاكي والأزرق.. وكل الألوان التي يرتدونها في هذه الحرب.

وبعد قليل، عادت "**توبنس**" إلى حالتها العادية.. وقالت إنها تستطيع أن تجد عملا بإحدى جماعات الإسعاف.

وبعد ثلاثة أيام رحل "**تومي**" إلى "**أبردين**".. وودعته زوجته "**توبنس**" على المحطة متجلدة، صابرة.. ولكنه أحس بعد أن تحرك القطار، وتضاءل شبحها الرقيق– أنه افتقدها.. غير أنه تمالك نفسه، فالأوامر هي الأوامر..

وبعد وصوله إلى "**اسكتلندا**"، سافر في اليوم التالي إلى "**مانشستر**"، وفي اليوم الثالث وصل به القطار إلى "**ليهامتن**".. فتوجه فوراً إلى الفندق

الرئيسي.. وفي اليوم التالي طاف بجميع الاستراحات والفنادق الخاصة، يسأل عن غرفة خالية، وعن أسعار الإقامة لمدة طويلة، وكانت "**سان سوسي**" عبارة عن فيللا حمراء على الطراز الفيكتوري أقيمت على سفح أحد التلال وتطل نوافذها العليا على منظر البحر الجميل، وعلى الرغم من أن أثاثها كان جميلا، إلا أنه كان قديمًا.. وقابل "**تومي**" صاحبتها السيدة "**برينا**" .. وهي سيدة في منتصف العمر، تعلو رأسها هالة مخيفة من الشعر الأسود المجعد، وقد لوثت وجهها ببعض المساحيق، وبدت أسنانها البيضاء اللامعة مرعبة من خلال ابتسامتها المصطنعة.. وفي حديثه معها ذكر اسم الآنسة "**ميدوز**" ابنة عمه الكبرى التي أقامت في "**سان سوسي**" منذ سنتين.. وتذكرت السيدة "**برينا**" ابنة العم هذه، وتحدثت عن ظرفها.. فأجابها "**تومي**" – في حرص– على تعليقاتها عن قريبته المزعومة، وعلى الرغم من أنه يعلم أن إدارة المخابرات كانت على ثقة بالمعلومات التي زودته بها عن الآنسة "**ميدوز**" .. ولما سئل عن أحوال قريبته، أجاب أنها توفيت، فأظهرت السيدة "**برينا**" أسفها وألمها.. ثم عرضت على "**تومي**" غرفة قالت إنها تناسبه كل المناسبة، فهي تطل على منظر البحر اللطيف، وحددت لها أجراً أسبوعيًّا نظير الإقامة والأكل، فأظهر "**تومي**" فزعه من ارتفاع السعر، ولكنها شرحت له أسباب ذلك، فأجابها أن دخله قد نقص كثيراً عن ذي قبل.. ثم تطرق الحديث عن ذلك الرجل "**هتلر**" ، فقال "**تومي**" :

– إنه يجب شنق ذلك الإنسان.. إنه رجل مجنون.. نعم مجنون ولا شك..

فوافقته السيدة "**برينا**" على رأيه، وقالت إنها تجد مصاعب جمة في الحصول على مواد التموين من لحم وخبز وغيرهما، وإن ماكولات كثيرة اختفت من الأسواق.. وإن.. وإن.. ولكن ما دام السيد "**ميدوز**" ابن عم صديقتها المرحومة، فإنها ستنقص المبلغ نصف جنيه.. فطلب "**تومي**" إمهاله يومًا يفكر فيما إذا كان دخله يحتمل هذا المبلغ.. فرافقته السيدة "**برينا**" حتى الباب الخارجي، وشيعته بكل ما تستطيع من تحيات ومجاملات.

وساءل "**تومي**" نفسه.. ماذا تكون جنسية تلك السيدة.. إنها لا يمكن أن تكون إنجليزية.. فالاسم إما أن يكون إسبانيًّا أو برتغاليًّا.. ولكن.. إن إحدى هاتين هي جنسية الزوج.. أما هي.. فربما تكون أيرلندية.. وأخيرا، صمم على أن ينتقل في اليوم التالي- باعتباره السيد "**ميدوز**"- إلى "**سان سوسي**".

وفي الساعة السادسة من مساء اليوم التالي، وصل إلى فيللا "**سان سوسي**" فقابلته السيدة "**برينا**" في البهو الخارجي بالترحاب، ثم أصدرت عدة أوامر – تتعلق بحقائبه- إلى خادمة تظهر عليها أمارات الغباء.. ثم قادته إلى غرفة الجلوس العامة وهي تقول:

– إنني أقوم بتقديم نزلائي بعضهم لبعض.. هذا هو السيد "**ميدوز**" نزيلنا الجديد.. السيدة "**أوروك**".. ماجور "**بلتشلي**".. السيد "**فون دينيم**".. الآنسة "**منتون**".. السيدة "**بلنكنسوب**".

وكان "**تومي**" ينحني في أدب عند تقديم كل من الحاضرين إليه، ورأى في السيدة "**أوروك**" سيدة بدينة قد خط شاربها بشكل مثير للضحك، أما الماجور "**بلتشلي**" فقد فحص "**تومي**" بنظره كأنما يثمن الضيف الجديد، ثم أحنى رأسه له.. وكان السيد "**فون دينيم**" شابًا صلب العود، أشقر الشعر، أزرق العينين، وقف على قدميه ثم انحنى كأنما يؤدي التحية العسكرية، أما الآنسة "**منتون**" فكانت سيدة مسنة تعبث بإبر التريكو، وقد ابتسمت وهمهمت ببعض ألفاظ التحية، وكانت السيدة "**بلنكنسوب**" تشغل يديها بأدوات التريكو هي الأخرى.. وما إن رفعت رأسها لتحية القادم حتى توقف تنفس "**تومي**".. ودارت به الغرفة.

كانت السيدة "**بلنكنسوب**" هي "**توبنس**".. زوجته.. إن هذا مستحيل ولا يمكن تصديقه، ولكنها قابلته بعينين فيهما الأدب، والتحفظ المتبادل بين الأغراب.. وهزت رأسها.

- 2 -

لم يدر "**تومي**" كيف قضى ليلته الأولى في "**سان سوسي**"؛ إذ كان من الصعب عليه أن يوجه نظراته ناحية السيدة "**بلنكنسوب**"، وظهر في ساعة الغداء- في اليوم التالي- ثلاثة آخرون من الفيلاً، هم السيد والسيدة "**كايلي**"، وسيدة شابة تدعى السيدة "**سبروت**" اصطحبت طفلتها الصغيرة معها.. وكان يبدو عليها دائماً عدم رضاها عن إقامتها الإجبارية مع تلك الطفلة في "**سان سوسي**"، وتصادف أن جلست على المائدة الكبرى إلى جوار "**تومي**"، وأخذت ترمقه بعينيها من وقت إلى آخر.. ثم قالت مستفسرة:

- ألا تظن أن الحالة أصبحت أكثر أمناً في هذين اليومين؟

وقبل أن يجيب "**تومي**"، ردت السيدة التي تجلس إلى يساره:

- لا أعتقد.. وقد سمعت أن "**هتلر**" ينوي الهجوم على "**بريطانيا**"، في الأيام القليلة القادمة، كما سمعت أن الهجوم سيكون بغاز من نوع جديد.

فقاطعها العقيد "**بلتشلي**" قائلا:

- ما أكثر الهراء الذي يتحدثون به عن الغازات.. إنهم لن يضيعوا وقتهم ليهاجمونا بالغازات، إنما الهجوم سيكون بالقنابل المدمرة والحارقة، فقد جربوها في "**إسبانيا**".

وهكذا بدأ المستمعون يتناقشون، وكل يدلي برأيه، وسمع "**تومي**" صوت "**توبنس**" الرفيع يقول:

- إن ولدي "دوجلاس" يقول في أحد خطاباته لي.

وعجب "**تومي**" في نفسه.. لماذا يا ترى اختارت اسم "دوجلاس" لولدها؟!

وبعد تناول الغداء انصرف الجميع إلى غرفة الاستراحة، وبدأت السيدات يقتلن الوقت بالتريكو.. واضطر "**تومي**" أن يستمع إلى حديث الماجور "**بلتشلي**" عن مغامرته في الحرب الأولى في الجبهة الغربية.. وبعد هنيهة انصرف الشاب الأشقر، وبعد أن انحنى لجميع من كانوا في الغرفة فقال العقيد "**بلتشلي**"

لـ"تومي" :

– إن هذا الشاب الذي خرج تواً.. أحد اللاجئين.. فقد خرج من "**ألمانيا**" هارباً قبل إعلان الحرب بشهر واحد.

– هل هو ألماني؟

– نعم.. ولكنه ليس يهودياً.. وقد قتل والده، لأنه انتقد النظام النازي، وله أخوان في المعتقلات هناك، فقد خرج من الجحيم في الوقت المناسب.

وخرج "**تومي**" في الصباح التالي مبكراً، وأخذ يتمشى ذهاباً وجيئة في الحديقة المحيطة بالفيلا.. حتى لمح شخصاً آتياً من الناحية المقبلة فرفع قبعته محيياً ثم قال:

– صباح الخير.. السيدة "**بلنكنسوب**" فيما أذكر.

ولما لم يكن هناك من يستمع إلى الحديث، فأجابت "**توبنس**" متهكمة.

– ومن أنت؟ الدكتور "**ليفنجستون**"؟

– كيف أتيت إلى هنا؟ أي "**توبنس**".. إنها وأيم الحق لمعجزة.

– ليس في الأمر معجزة قط.. كل ما في المسألة أنني أعملت ذهني. وبأبسط الوسائل.. حتى أعطيكما.. أنت والسيد "**جرانت**" درساً لا تنسيانه أبداً.

– وكيف حدث هذا؟

– الأمر في غاية البساطة.. عندما كان "**جرانت**" يتحدث معك، وذكر اسم "**كارتر**" استنتجت أن العمل الذي يعرض عليك، لا يمكن أن يكون عملا مكتبياً عادياً.. وقد أحسست أنه من نوع لن أشترك فيه.. ولما كان هذا ضد رغبتي، فقد انتهزت فرصة خروجي لإحضار الشراب لكما، ونزلت إلى شقة جارتنا السيدة "**براون**"، ومن هناك طلبت صديقتي "**مورين**" تليفونياً ورجوتها أن تطلبني بعد لحظات، وأفهمتها ماذا تقول.. وقد نفذت تعليماتي حرفياً.. ومثلت دوري بعد ذلك ببراعة.. إذ انسحبت لنجدة صديقتي، كما خيل إليكما، وقفلت باب الشقة بعنف حتى تعتقدا أنني خرجت.. بينما تسللت إلى غرفة النوم، وأخذت أنصت إلى حديثكما من خلف الباب.

– لا ذنب لي فيما حدث، فالسيد **"جرانت"** وحده هو المسؤول.

– لم يكن جديراً بالسيد **"كارتر"** أن يعاملني هكذا.. إن إدارة المباحث تغيرت كثيراً عما كانت في أيامنا.

– لا شك في أنها ستعود كما كانت، ما دمنا قد عاودنا نشاطنا. ولكن.. لم اخترت اسم **"بلنكنسوب"** هذا؟

– ولِمَ لا..؟

– غريب أن يقع اختيارك على هذا الاسم بالذات.

– إن حرف «ب» في **"بلنكنسوب"** يقوم مقام الـ «ب» في **"برسفورد"**.. أيها الغبي.. وهذه الحروف مطرزة على جميع ملابسي الداخلية.. وأنت.. ما الذي دعاك إلى اختيار اسم **"ميدوز"** إنه الغباء المعهود.. فيما أظن.

أنا لم أختره وإنما اختير لي، والسيد **"ميدوز"** الحقيقي رجل له ماض ناصع حفظته عن ظهر قلب.

– هذا عظيم.. وهل أنت عازب.. أم متزوج؟

– إنني أرمل.. توفيت زوجتي منذ عشر سنوات في **"سنغافورة"**.

وإذا افترضنا أن أحداً سعى للكشف عن حقيقة السيد **"بلنكنسوب"** المزعوم هذا.

– إن أولادي ليسوا من **"بلنكنسوب"**، فهو زوجي الثاني.. أما زوجي الأول فاسمه **"هيل"**، وإنك لتجد ثلاث صفحات كاملة في دليل التليفونات تشترك كلها في اسم **"هيل"**.

– إنها دائماً نفس المسألة.. فأنت تحبين تعقيد الأمور دائماً.. زوجان.. وثلاثة أبناء.. إني أعتقد أنك ستناقضين نفسك بنفسك، إذا سئلت عن بعض التفاصيل.

– أبداً.. بل على العكس.. إنني سأنتفع بهؤلاء الأبناء.. ثم، لا تنس أنني حرة، لا أتلقى أوامر أحد.. وقد اشتركت في هذا العمل لأسلي نفسي.. وسأسليها.

– يبدو أن الأمر بالنسبة إليك مجرد تسلية.. لعمري.. إنها مهزلة.

– لماذا تقول ذلك؟

– حسن.. لقد أقمت بـ"سان سوسي" مدة أطول من إقامتي أنا بها. فهل ترين في كل من كانوا معنا بالأمس، من يصح اعتباره من عملاء الأعداء؟

– لعل الأمر صعب التصديق حقًا.. ومع ذلك فهناك ذلك الشاب الأشقر.

– تقصدين "كارل فون دينيم"..؟ إنه أحد اللاجئين.. والبوليس يتحرى عنهم جميعًا.

ومع ذلك فإنه يصلح.. ألا ترى أنه جذاب؟

– تقصدين أن الفتيات سيعلقن به، ويدلين إليه بأخبار وأحاديث؟

– كفى هذرًا يا "تومي".. إننا ندرس جديًا الآن..

– إني جاد تمامًا فيما أقول.. وأظننا نجري وراء سراب.

– ما رأيك في السيدة "برينا" نفسها؟

– نعم السيدة "برينا".. إنها موضع نظر.. وتحتاج إلى شيء من الدراسة.

– وماذا عنا. أعني كيف نتعاون؟

– لا يجب طبعًا أن نرى معا.

– كما يجب أن يتجاهل بعضنا البعض، فلا يظهر أن ثمة علاقات سابقة بيننا. وما أريده هو تنظيم مبدأ للعمل.. وإني أقترح «الملاحقة».

– الملاحقة! ماذا تعنين!؟

– أن ألاحقك في كل مكان.. وأن تبذل جهودك في التخلص مني، ولكنك– كجميع الرجال– لا تنجح دائمًا في الهروب.. ولا تنس أنني تزوجت مرتين، وفي حاجة إلى زوج ثالث.. وعليك أن تمثل دور الأرمل المتبوع.. فإذا رآنا أحد سويًا فلن يقول سوى.. انظر.. السيد "ميدوز" المسكين.. لعل السنارة قد شبكت.

وفجأة أمسك "تومي" بذراعها، وقال هامسًا:

– انظري.. انظري أمامك مباشرة.

- إنه "**كارل فون دينيم**" .. ولعمري.. من هذه الفتاة التي انهمك في الحديث معها هكذا؟

- إنها فتاة جميلة جداً على أية حال.

وراقبت "**توبنس**" الشابين، فرأت وجه الفتاة الأسمر، وهي تتحدث في حماسة إلى "**كارل**" الذي كان منصتاً إلى حديثها بشغف واضح، ثم قالت "**توبنس**":

- يحسن بنا أن نفترق الآن.

وبدأ "**تومي**" يسير في اتجاه مضاد. حتى قابل العقيد "**بلتشلي**"، الذي رمقه بنظرة فاحصة ثم قال:

- صباح الخير. أرى أنك مثلي.. ممن يبكرون في اليقظة..

ودار بينهما حديث طويل، قص فيه "**تومي**" على العقيد كيف أنه قابل السيدة "**بلنكنسوب**" وعلم منها أنها أرملة بلا زوج.. فحذره الآخر من حبائل الأرامل.. ثم اتجها سوياً إلى "**سان سوسي**" لتناول طعام الإفطار، وفي الوقت نفسه سارت "**توبنس**" في طريقها ومرت بالقرب من الزاوية التي اختلى فيها الشابان، وكانت الفتاة هي التي تتحدث، وسمعتها "**توبنس**" تقول:

- ولكن.. يجب أن تكون على حذر يا "**كارل**".. فاقل شك..

ولم تستطع "**توبنس**" أن تقف لتستمع إلى بقية الحديث، فسارت إلى نهاية الممر، وعادت لتسمع من جديد.

- .. حقير.. هذا الجنس الإنجليزي البغيض.

وارتفع حاجبا السيدة "**بلنكنسوب**".. إن السيد "**كارل فون دينيم**" لاجئ ألماني.. آوته "**بريطانيا**" لهربه من الوحشية النازية، فلم يكن جديراً به أبداً أن يتفوه بمثل هذه الألفاظ.. وعادت "**توبنس**" من جديد لتمر بجوارهما، ولكنهما كانا قد افترقا، فقد اتجهت الفتاة إلى ناحية البحر بينما سار "**كارل فون دينيم**" في الاتجاه المضاد، وقابل "**توبنس**".. فوقف وضم كعبيه بطريقة عسكرية، ثم انحنى لها. فقالت:

– صباح الخير يا سيد "**فون دينيم**" .. إن الجو جميل هذا الصباح!

– نعم.. إن الطقس بديع.

– لقد اجتذبني للخروج. فليس من عادتي اليقظة المبكرة، أو على الأقل الخروج قبل تناول طعام الإفطار.. ولكني لم أنم جيداً بالأمس. إن المرء لا يتمتع بالنوم في مكان جديد عليه. ولابد أن يمر بعض الوقت حتى يألف الإنسان المكان.. وقد أفدت فعلا من السير هذا الصباح.. وتفتحت شهيتي للإفطار.

– أذاهبة أنت إلى "**سان سوسي**" الآن؟ إذا سمحت.. رافقتك إلى هناك.

وسار إلى جانبها. فقالت "**توبنس**" :

– هل خرجت أنت أيضاً رغبة في فتح الشهية؟

– لا.. أبداً.. لقد تناولت طعام إفطاري.. وأنا في طريقي إلى العمل.. إني كيميائي.

وبعد لحظة سكون استطرد يقول:

– لقد تركت بلادي هرباً من الاضطهاد النازي. وليس لدي مال كثير.. كما أني بلا صديق.. ولذلك أقوم بالعمل النافع الوحيد الذي أجيده. إن أخويّ في المعتقلات وقد توفي والدي في أحدها.. أما والدتي فقد ماتت من الحزن والرعب.

ومر بهما رجلان سمعت "**توبنس**" أحدهما يقول:

– أراهنك أن هذا الشاب ألماني.

فلاحظت "**توبنس**" الدماء تتصاعد إلى وجنتي "**كارل فون دينيم**"، وفجأة فقد السيطرة على أعصابه.. وظهرت عواطفه الحبيسة فجأة فقال:

– أسمعت؟ أسمعت؟ هذا هو ما يقولون.. إنني..

– يا ولدي العزيز.. لا تكن غبيًّا.. إنك لا تستطيع أن تملك ناصية الأمور. أنت لاجئ.. ويجب عليك أن تحتمل السيئة والحسنة. ولا تنس أنك حي وحر في نفس الوقت.. ولا تنتظر من رجل الشارع أن يميز بين الألماني الطيب والألماني الخبيث.

– الحق معك.. وحتى أكون ألمانيًّا طيبًا.. يجب أن أكون في عملي الآن.. فلا تؤاخذيني.. سعدت صباحًا.

ثم انحنى لها تلك الانحناءة التقليدية وانصرف.

كانت أبواب ردهة "**سان سوسي**" مفتوحة.. وسمعت وهي تقترب صوت السيدة "**برينا**" تقول:

– لا تنس أن تطالبه بالكمية الأخيرة من الزبد الصناعي.. أوه.. صباح الخير يا سيدة "**بلنكنسوب**".. أرى أنك تبكرين في اليقظة.. أقدم لك ابنتي.. "**شيلا**".. كانت على سفر، ولم تحضر سوى مساء أمس.

فتمتمت "**توبنس**" بألفاظ التحية المعتادة، واتجهت إلى قاعة الطعام.. وكانت السيدة "**سبروت**" هناك ومعها طفلتها.. والسيدة "**أوروك**"، فتبادلن جميعًا تحية الصباح.. وكانت السيدة "**سبروت**" تطعم الطفلة.. التي ما إن رأت "**توبنس**" حتى اتجهت نحوها بكل حواسها.

فقالت السيدة "**سبروت**" لـ"**توبنس**":

– إنها تحبك.. على الرغم من أنها أحيانًا تكون في غاية الخجل من الغرباء.

وعادت "**بتي سبروت**" تصيح بكلمات غير مفهومة، فسألت السيدة "**أوروك**" في شغف:

– وماذا يا ترى تعني بهذا؟

– إنها لا تنطق الألفاظ جيداً.. فعمرها أكثر من سنتين بأيام.. ولعل أكثر ما تقول لا معنى له.. ولو أنها تستطيع أن تقول ماما.. أليس كذلك يا حبيبتي؟

وعادت "**بتي**" بعد أن نظرت إلى أمها طويلا تنطق بكلماتها المحرفة الغريبة.

فقالت السيدة "**أوروك**":

– إن للأطفال لغتهم الخاصة.. إنها لغة الملائكة الصغار.. والآن يا "**بتي**" العزيزة قولي.. ما.. ما..

فنظرت "**بتي**" إلى السيدة "**أوروك**" ثم قالت في تأكيد:

– نازير..

ولعل السيدة "**أوروك**" العجوز تضايقت من عدم استماع "**بتي**" لحديثها، وانصرفت من الحجرة غاضبة بعد أن رمقت الطفلة بنظرة غيظ..!

فضحكت الطفلة.. وكأنما ارتاحت إلى خروج العجوز.. وأخذت تضرب بالملعقة على منضدة الأكل.

وقالت "**توبنس**":

– ترى.. ماذا تعني بكلمة «نازير» ؟

فأجابت السيدة "**سبروت**":

– إنها.. – فيما أعتقد – الكلمة التي تقولها "**بتي**" عندما تكون كارهة لشخص ما.. أو لشيء ما.

وضحكتا.. وعادت السيدة "**سبروت**" تقول:

– على كل حال.. أعتقد أن السيدة "**أوروك**" لا تظهر سوى الحنو نحو الفتاة.. ولكن يظهر أن طريقتها في ذلك لا تعجب "**بتي**".. خاصة وأن ذلك الشعر النامي على وجهها ليس مما يسر "**بتي**" أن تراه..!

وأخذت "**بتي**" تصيح نحو "**توبنس**".. فقالت السيدة "**سبروت**":

– لقد ألفتك يا سيدة "**بلنكنسوب**".

وفي تلك اللحظة فتح باب الردهة ودخل العقيد "**بلتشلي**" و"**تومي**" فصاحت "**توبنس**":

– السيد "**ميدوز**".. ليس للغائب نصيب.. ولم يبق لك من طعام الإفطار إلا القليل ،ثم أشارت إلى المقعد المجاور لها كأنها تدعوه.

فقال "**تومي**"، وهو يجلس على مقعد في طرف المائدة الآخر:

– أوه.. شكراً.. شكراً.

وحدثت "**توبنس**" نفسها.. لابد أن يكون هناك خطأ.. لا يمكن أن يكون هناك خطأ.. لا يمكن أن يكون هنا شيء.. أبداً.. أية عقلية تستطيع تصديق أن في "**سان سوسي**" مركزاً لقيادة الطابور الخامس؟

- 3 -

تمت علاقات وطيدة بين "تومي" والعقيد "بلتشلي"، ورغب كلاهما في لعب الجولف سويًّا، فذهبا إلى النادي الوحيد القريب.. وكانت النتيجة أن ربح العقيد فقال:

– إنه شوط عظيم.. يا "ميدوز".. ولعل سوء الحظ الذي لازمك هذه المرة يتركك في المرة القادمة.. إذ يجب أن نعاود اللعب من وقت إلى آخر.. والآن تعال معي.. لأقدمك لبعض الصحاب، من أعضاء هذا النادي.. آه.. هذا "هايدوك".. إنه سيروقك ولا شك، فهو ضابط بحار متقاعد.. وهو يملك ذلك المنزل المطل على القمة.. كما أنه مراقب الغارات الجوية في هذه المنطقة.

كان الكوماندور "هايدوك" رجلا ضخمًا، سليم الطوية، لفح وجهه جو البحار، الذي عاش فيه متنقلا.. فحيا "تومي" بحماسة وقال:

– وأخيراً وجد "بلتشلي" من يصاحبه في "سان سوسي"، وسيتخلص من ذلك المستنقع الحريمي الذي كان يغوص فيه.. أليس كذلك يا "بلتشلي"؟

– إنني – كما تعلم – لست زير نساء.

– المسألة أنك لم تجد الصنف الذي يروقك.. هذا كل ما هنالك.. إن من تراهنّ هناك جماعة من العجائز.. كل همهن الثرثرة وأشغال التريكو.

– إنك تتناسى الآنسة "برينا".

– آه.. "شيلا".. إنها فتاة جذابة بلا شك.. بل إنها– في رأيي– نموذج للجمال.

كانت المشروبات قد أعدت.. وجلسوا جميعًا في شرفة النادي.. وأعاد "هايدوك" سؤاله من جديد، فأجاب العقيد "بلتشلي" في عنف..

– إنه ذلك الفتى الألماني.. الذي يزعجني.. فهي تقابله كثيراً.

– هل تريد أن تقول إنها مغرمة به..؟ هذا أمر سيئ للغاية.. والواقع أنه شاب جميل المظهر.. ولكن العلاقة يجب ألا تسير في هذا الطريق.. فنحن لا نرضى

عن مثل ذلك يا "بلتشلي".. إنها ستؤدي إلى التعاون مع الأعداء.. أليس كذلك؟

– إن "شيلا" فتاة غريبة في الواقع.. ثم إنها تتصرف تصرفات شاذة.

– إن الدم الإسباني يجري في عروقها.. هل تعلم أن أباها نصف إسباني؟

– لا أدري.. ولو أن الاسم كما أرى يدل على ذلك.

ونظر الكوماندور في ساعته ثم قال:

– إنه وقت إذاعة الأخبار.. فهيا نستمع إلى ما هنالك.

ولم تتقدم المناقشة أكثر من ذلك؛ لأن "بلتشلي" و"تومي" كانا مضطرين للذهاب إلى "سان سوسي" فقد حل موعد الغداء.. وقد دعا "هايدوك" "تومي" في حرارة إلى زيارته في منزله الصغير المسمى «استراحة المهربين» قائلا: إنه مكان لطيف يطل على البحر، وفيه كل ما يسلي، كما طلب إلى "بلتشلي" أن يأتي معه.. فاتفق "تومي" والعقيد على أن يذهبا إليه في مساء اليوم التالي.

ومر العصر- في "سان سوسي"- بأمن وسلام، إذ ذهب السيد "كايلي" ليستريح مع زوجته الجميلة، أما السيدة "بلنكنسوب" فقد ذهبت- بإرشاد الآنسة "منتون"- لتشتري بعض الحاجات، التي قالت: إنها سترسلها إلى أبنائها في الجبهة.. أما السيد "ميدوز" فقد خرج من "سان سوسي" في هدوء.. وسار في الطريق الممتد حتى نهاية مدينة "ليهامتن".. وابتاع علبة سجائر وعدداً من مجلة "بنش".. ولما وصل إلى المرفأ الصغير، قفز إلى أحد القوارب العامة، التي تنقل الركاب بين الحين والحين إلى سائر المدن الصغيرة المتناثرة على الساحل في تلك المنطقة.. ولم يكن بالقارب سوى بضعة أطفال يصيحون، ورجل مسن جلس في مؤخرة القارب يتسلى بصيد السمك.. فاتجه إليه السيد "ميدوز" وسأله في أدب:

– هل اصطدت شيئًا؟

فهز الرجل رأسه قائلا:

– لا جديد حتى الآن.. وماذا فعلت أنت؟

– لا شيء حتى الآن يا سيد "جرانت".. سوى أنني اندمجت في الجو.. وأعتقد أنني وصلت إلى معلومات لا بأس بها.. وأظنك تعرف أسماء نزلاء "سان سوسي".

– نعم.

– لقد توطدت الصداقة بيني وبين العقيد "بلتشلي"، ولعبنا الجولف سويًا هذا الصباح.. ويظهر أنه يمثل الضابط المتقاعد العادي.. أما "كايلي" فإنه يمثل المريض المخبول وقد قص عليَّ – بمحض إرادته – أنه كان في "ألمانيا" مدة طويلة قبل الحرب.

– هذه مسألة مهمة.

– ثم هناك "فون دينيم".

– نعم.. وإني لأوصيك.. إن "دينيم" هو الشخص الذي يهمني أمره.

– هل تظن أنه "ن"؟

– لا.. لا أظن.. ففي رأيي أن "ن" لا يرى من الحكمة أن يظهر في المجتمع في ثياب الألمان.. ثم إننا سنعتقل كل رعايا الأعداء، الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والستين، وسواء أكان خصومنا قد حسبوا حساب هذا أم لم يحسبوه، فلابد أن يدركوا جواز حدوثه في أية لحظة.. وبناء على ذلك يستحيل أن يجازفوا بعميد منظمتهم، فيتركوه عرضة للاعتقال. ولذلك أرجح أن يكون "ن" من رعايا البلاد المحايدة، أو إنجليزيًا صميمًا.. وينطبق نفس الشيء على "م". أما "فون دينيم"، فقد يكون في حلقات السلسلة، ومن الجائز ألا يكون "ن" أو "م" في "سان سوسي"، وربما يكون "فون دينيم" هو رسولهما هناك.. وعن طريقه نستطيع أن نصل إليهما وأظن أن هذا أقرب الفروض إلى الصواب.

– أعتقد أنكم تحريتم عن كل نزلاء "سان سوسي".

– كلا.. فإن هذا مستحيل.. على الرغم من أنه يمكنني – بلا شك – أن

أطلب إلى الإدارة القيام به.. ولكنني لا أخاطر بذلك يا "**برسفورد**"، وخصوصا أنك تعلم أن (الإدارة) نفسها موبوءة.. ولو ذكرت أية همسة عن "**سان سوسي**" فسيعلم بها الأعداء في الحال، وهذا هو الذي دفعنا إلى استخدامك؛ لأنك غريب عن الإدارة، فيجب عليك أن تعمل في الظلام، دون انتظار مساعدة منا.. ومع كل.. فقد تحرينا عن واحد منهم.

– ومن هو يا سيدي؟

– إنه "**كارل فون دينيم**" نفسه.. إني أستطيع بكل بساطة أن افعل به ما يروقني. باعتباره من رعايا الأعداء.

– وماذا كانت النتيجة؟

– إن كل ما يقوله السيد "**كارل**" صحيح.. فقد ظهر أن أباه مات في أحد المعتقلات وأن أخويه ما زالا سجينين، وماتت أمه في السنة الماضية بتأثير إرهاق عقلي عنيف، وقد صرح الفتى حال وصوله برغبته في مساعدة هذه البلاد.. وقد ثبت أن عمله في معمل البحوث الكيميائية لا غبار عليه.. كما أنه استطاع أن يكشف وسائل مفيدة تقي البلاد شر بعض أنواع الغازات السامة.

– وعلى ذلك ترى أنه لا شك فيه؟

– ليس ذلك ضروريا. إن أصدقاءنا الألمان، اشتهروا بدقتهم في كل تصرفاتهم فإن كان "**فون دينيم**"، قد أرسل كعميل لهم، فلابد أنهم قد اتخذوا الحيطة، حتى يكون كل ما يعرف عنه مطابقا لشخصيته.. وهناك احتمالان: الأول أن تكون عائلة "**فون دينيم**" قد اندمجت جميعها في هذه الترتيبات.. والثاني أن يكون هذا الشخص رجلا آخر تقمص شخصية "**كارل فون دينيم**".

– ربما.. ولو أنه في نظري شاب في غاية اللطف.

– أجل. إنهم يظهرون كذلك دائماً.. ولعمري.. ما أغرب عملنا هذا فنحن نحترم خصومنا وهم يحترموننا.. وقد جرت العادة أن تقدر خصمك، وتعمل في نفس الوقت جاهداً على هدمه.

– ولكن هناك فئة لا نحترمها ولا نقدرها.

– نعم يا سيدي.. فئة الخونة الذين يقيمون بيننا.. أولئك الذين رضوا أن يبيعوا وطنهم، وواجبنا أن نستأصل شأفتهم، ونبيدهم عن آخرهم على أن يتم ذلك بأسرع ما يمكن. وإلا فاتنا القطار.

– لن يفوتنا القطار يا سيدي.. بكل تأكيد.

– ماذا يدفعك إلى هذا التأكيد؟

– أنت يا سيدي.. فقد قلت إن واجبنا أن نستأصلهم بأسرع ما يمكن.. فنظر إليه "**جرانت**" في إعجاب وتمتم قائلا:

– عظيم، ولكن ما رأيك في سيدات "**سان سوسي**"؟ هل ترى فيهن من يشتبه في أمرها؟

– إني أرى بعض الغرابة في سلوك صاحبة المكان.

– السيدة "**برينا**"؟

– نعم.. أتعلم أي شيء عنها؟

– سأحاول أن أتحرى عنها على الرغم مما في ذلك من مخاطرة.

– نعم.. فهي الوحيدة بين النساء التي تحوم حولها شكوكي.. أما الباقيات.. فهناك أم شابة، وعانس كثيرة الكلام.. وامرأة مخبولة وسواسة.. وهناك أيضًا امرأة أيرلندية مخيفة المنظر.. وكلهن– فيما أرى– لا ضرر منهن.

– وغير هؤلاء؟

– هناك السيدة "**بلنكنسوب**" التي وصلت منذ ثلاثة أيام فقط.

– وماذا عنها؟

– إن السيدة "**بلنكنسوب**".. هي.. زوجتي.

– ماذا..؟!

وصاح "**جرانت**" وهو يدور حول نفسه متفرسًا في "**تومي**" بغضب شديد:

– امرأتك يا "**تومي**".. لا تنبس بكلمة واحدة لزوجتك؟!

– نعم يا سيدي، وقد فعلت.. ولكن إذا أعرتني سمعك قليلا..

وفي إيجاز روى "**تومي**" كل ما حدث، دون أن يجرؤ على النظر إلى محدثه، ومرت فترة سكون بعد أن أتم القصة، وتبع ذلك ضحكات بل قهقهة السيد "**جرانت**" التي استمرت عدة دقائق.. ثم قال:

– إني أحني هامتي لهذه السيدة.. إنك لا تجد واحدة في الألف مثلها.

– إنها زوجتي يا سيدي.. وإني فخور بها.

– سيضحك "**ايسامتون**" ملء شدقيه، عندما يسمع هذه القصة، فقد تنبأ بها، وحذرني من تهيئة فرصة لها للعمل تحت إمرتي حتى لا تفوز عليّ.. ولكنني لم أهتم بما قال وكنت أنوي الاتصال بها قريبًا لتكليفها بمهمة أخرى، ولكن هذا الحادث، وعلى الرغم من أنه في صالحنا، فإنه يرينا إلى أي حد يجب أن نكون على حذر.. فقد ظننت يوم زرتك أنني اتخذت كل احتياطاتي، لأمنع أي مخلوق من الإنصات إلى حديثنا.. وأقنعت نفسي أولا بأنك وزوجتك وحدكما في الشقة.. كما أنني سمعت ذلك الصوت الحاد في التليفون فلم يساورني فيه أي شك، وعلى الرغم من كل ذلك فقد خدعت بلعبة الباب المصفوق القديمة.. أجل إنها سيدة بارعة.

وسكت لحظة ثم قال:

– بلغها عن لساني أني أعترف لها بالغلبة، وأني أعتبرها معنا في العمل.. ولعمري إنها معنا سواء أردنا أم لم نرد.. فبلغها أن (الإدارة) تتشرف باشتراكها معنا في هذه المهمة.

– سأبلغها ذلك يا سيدي.

– ولكن المسألة خطيرة إلى حد كبير فإذا حدث وكشفوا أمرك.. أو أمرها.

– إني أفهم هذا جيداً يا سيدي.. ولكننا اعتدنا– منذ زواجنا– أن نشترك في كل شيء.

- 4 -

عندما دخلت "توبنس" غرفة الاستراحة في "سان سوسي" كانت السيدة "أوروك"، وحدها تتطلع من النافذة إلى الخارج، فخُيِّل إلى "توبنس" أنها أشبه الأشياء بتمثال "بوذا" الضخم.. فقطعت "توبنس" عليها تيار أحلامها وسألتها:

– هل تعتقدين أن السيدة "برينا" أيرلندية؟

– أجل.. ولست أشك في ذلك.. فإنني أعرف الناس بسيدات بلادي.. وإنني أستطيع تحديد المنطقة التي تنتمي إليها.. على الرغم من أنها تدعي في كل وقت أنها إنجليزية وأن زوجها إسباني.

وانقطع الحديث عندما دخلت القاعة السيدة "سبروت" يتبعها "تومي"، فسارعت "توبنس" إلى تمثيل دور الاهتمام به وقالت:

– مساء الخير يا سيد "ميدوز".. يبدو عليك النشاط الليلة.

– يرجع السر في ذلك إلى الرياضة المتواصلة.. فقد لعبت شوط جولف في هذا الصباح وقمت بجولة طويلة بعد الظهر.

وقالت السيدة "سبروت":

– أما أنا، فقد صحبت الطفلة إلى الشاطئ، وكانت تود النزول في أحد القوارب ولكنني خفت عليها البرد، فساعدتها في بناء بيوت من الرمال.. وأهملت التريكو.

وبعد لحظات وصل بقية النزلاء، ثم دق ناقوس العشاء.. ودار الحديث بين الجميع على المائدة، في موضوعات الحرب والجاسوسية والتموين. وبعد العشاء خرجت "توبنس" وتبعها "تومي"، وسارا قليلا فترة من الوقت، استعرضا فيها شكوكهما بالنسبة لكل نزلاء "سان سوسي"... ثم تركت "تومي"، وفي طريقها إلى الفيلا، اشترت بعض طوابع البريد ودخلت أحد أكشاك التليفون العامة وطلبت السيد "فراداي"، وكانت هذه هي الوسيلة التي اتفق عليها

"**تومي**" للاتصال بالسيد "**جرانت**"، وخرجت من كشك التليفون باسمة، ثم اشترت بعض الصوف اللازم لأشغال التريكو.

وفكرت - وهي تسير في طريقها إلى الفيلا - في شخصية السيدة "**بلنكنسوب**" التي تقمصتها، شخصية السيدة التي لا تجيد التريكو.. ولكن تقضي أغلب وقتها فيه، وفي كتابة الخطابات لأبنائها.. ثم فكرت أيضًا في أنها كثيرًا ما تتعمد ترك هذه الخطابات في غرفتها قبل الانتهاء منها.. ووصلت "**توبنس**" إلى قمة التل المطل على "**سان سوسي**".. وسارت في الطريق المؤدي إليها، ذلك الطريق الذي ينتهي من الناحية الأخرى بمنزل الكوماندور "**هايدوك**" المسمى «**استراحة المهربين**»، وأخذت تتسلى بقراءة أسماء الفيللات، حتى إذا قاربت "**سان سوسي**" رأت منظرًا أثار دهشتها..

كان هناك خيال امرأة واقفة إلى جوار سور الفيلا الحديدي تتلصص بالنظر إلى داخلها في شكل مريب.. وبدون وعي أخفت "**توبنس**" صوت خطواتها وسارت باحتراس خلفها تمامًا.. فاستدارت.

كانت امرأة طويلة القامة، متوسطة السن، ترتدي ثيابًا حقيرة، وكان هناك تباين واضح بين جمال وجهها وحقارة ملابسها، وأحست "**توبنس**" لأول وهلة، أن هذا الوجه ليس غريبًا عليها، ولكن هذا الإحساس سرعان ما اختفى عندما أجفلت المرأة، وظهرت على وجهها علامات الذعر والفزع.. فسألتها "**توبنس**" في هدوء:

- لا تؤاخذيني.. هل تبحثين عن شخص ما؟

وأجابت المرأة ببطء وبلهجة أجنبية.. وكانت تنطق الكلمات كما لو كانت قطعة محفوظات:

- هذا المنزل يدعى "**سان سوسي**"؟

- نعم.. وأنا من ساكناته.. هل تطلبين أحدًا منهم؟

- أتسمحين؟! هل هناك من يدعى السيد "**روزنستاين**"؟

- السيد "**روزنستاين**"؟ لا.. أخشى ألا يكون هذا الاسم هنا.. وربما كان..

فإذا أردت بحثنا لك عنه في سجلات الفيلا.. أو نسأل صاحبتها..

– لا.. لا ضرورة.. فقد أخطأت.. لا تؤاخذيني من فضلك.

وأسرعت فاستدارت وانحدرت مع التل.

والتفتت "توبنس" تتطلع خلفها، وقد ثارت شكوكها، فإن هناك تباينًا عظيمًا بين كلمات تلك المرأة ومظهرها.. واسم "روزنستاين" هذا.. لقد اخترعته في الحال.. ثم بدأت تهبط التل خلف تلك الغريبة.. ولكنها ما كادت تخطو عدة خطوات، حتى توقفت، وفكرت في أنها لو سارت خلفها فإنها ستجذب الأنظار إلى نفسها.. فربما كان هناك من رآها وهي على أهبة الدخول إلى "سان سوسي".. فإذا رؤيت بعد ذلك مباشرة وهي تتبع هذه المرأة فإنها ستثير الشكوك نحوها.. وبخاصة إذا كانت تلك الغريبة من عصبة الأعداء. فصممت على أن تعود بالتالي إلى "سان سوسي"، وعندما دخلت إلى الردهة الخارجية لم تر أحداً، وسمعت بعد لحظة صوتًا ليس غريبًا عليها فإنه أحد الأصوات التي تعرفها جيداً.

كان التليفون – في فيلا "سان سوسي" – موضوعًا في الردهة الخارجية، ولم يكن هناك من يتكلم فيه، ولكنها سمعت صوتًا هو صوت وضع السماعة أو رفعها عن آلة فرعية في مكان ما.. وكانت "توبنس" تعلم تمامًا أن آلة فرعية واحدة في المكان، وأنها في غرفة نوم السيدة "برينا". ولو كان "تومي" في هذا الموقف لما جرؤ وما أقدم على ما فعلت "توبنس"، ولكنها لم تتردد، فقد سارت في خفة إلى موضع التليفون، ورفعت السماعة بهدوء، واستمعت إلى ما يدور من حديث.. كان هناك من يتكلم، إنه صوت رجل، وكان يقول:

– كل شيء يسير على ما يرام.. إذن في الرابع.. كما هو المتفق عليه؟

وأجاب صوت نسائي:

– نعم، ولنواصل العمل.

ووضعت السماعة.

ووقفت "توبنس" تفكر لحظة. هل يكون ذلك صوت السيدة "برينا"؟ من

الصعب التأكد من ذلك.. وتمنت لو استمر الحديث فترة أطول.. ولكن.. أليس من الممكن أن يكون حديثًا عاديًا لا قيمة له؟

ولاح خيال على أحد الأبواب، فأسرعت "**توبنس**" ووضعت السماعة في مكانها، وعندئذ سمعت صوت السيدة "**برينا**" تقول:

- ما أجمل الجو الآن.. هل أنت خارجة يا سيدة "**بلنكنسوب**" أم قادمة؟

- وأجابت "**توبنس**" بأنها قضت الوقت في الخارج، وأنها في طريقها إلى غرفتها.. واستنتجت "**توبنس**" أن التي تحدثت في التليفون لم تكن السيدة "**برينا**"، فإن المسافة من غرفتها إلى الردهة لا يمكن أن تقطع في تلك اللحظات القصار بعد ختام الحديث التليفوني وظهورها في الردهة.

وخيل إلى "**توبنس**" أن السيدة "**برينا**" تتحرك خلفها ببطء، فالتفتت ورأت السيدة "**أوروك**" في أعلى الدرج تسد عليها الطريق بجسمها الضخم.. وفي تلك اللحظة الحرجة، مرقت من خلف السيدة "**أوروك**".. "**بتي**" الصغيرة وكانت تصيح..

وتعلقت "**بتي**" بـ"**توبنس**" فأكملت صعود الدرج، وقابلت السيدة "**سبروت**" على باب غرفتها وكانت قد بدأت تعنف الطفلة، فدخلت "**توبنس**" غرفة السيدة "**سبروت**" ورأت ملابس الطفلة منتثرة هنا وهناك، مختلطة بلعبها وكتبها، كما لاحظت صورة للسيد "**سبروت**" موضوعة فوق صوان الملابس.. وكان كل ما في الغرفة على حال من الفوضى لا حد له، وأدركت "**توبنس**" الأسباب التي تدعو السيدة "**سبروت**" إلى العزوف عن استقبال أحد في غرفتها.. إنها هذه الفوضى الدائمة بلا شك.. حقًّا إن كل ما في "**سان سوسي**" يبدو طبيعيًّا.. ولابد أنها أعصاب "**توبنس**" المرهقة التي صورت لها ما صورت.. ولكن.. إن شخصًا ما كان يتكلم في التليفون.. من غرفة نوم السيدة "**برينا**" بالتأكيد.. ويتحدث «الرابع».. هل كانت السيدة "**أوروك**"؟ إن ذلك يبدو مستبعدًا.

قد لا تعني هذه الكلمات شيئًا.. وقد تعني أشياء خطيرة..

الرابع.. هل هو تاريخ.. الرابع من الشهر مثلا.. أو.. أي شيء. إن تحقيق ذلك مستحيل.. ولعل المسالة لا تعدو أن تكون أمرًا عاديا جدًّا.. كأن تكون السيدة "**برينا**" قد سمحت للسيدة "**أوروك**" باستعمال التليفون الموجود في غرفة نومها في أية لحظة تشاء..

- 5 -

ظهر أن الكوماندور "**هايدوك**" مضيف من الطراز الأول. فقد قابل السيد "**ميدوز**" والعقيد "**بلتشلي**" بحماسة، وصمم أن يطوف بالأول كل أرجاء منزله الصغير المسمى «**استراحة المهربين**»، ولم تكن هذه الاستراحة في أول أمرها سوى كوخين من أكواخ حراس الشواطئ يقعان على قمة تشرف على الشاطئ، اشتراهما أحد رجال الأعمال وربط بينهما، وحاول أن يزرع حديقة في الأرض المحيطة بأحدهما؛ إذ إن الجهة الأخرى كانت هوة لا يخاطر بالاقتراب منها إلا المخاطرون من الشباب.

وكان رجل الأعمال هذا، لا يزور تلك الناحية إلا في شهور الصيف، ثم يتركها فتبقى بلا ساكن عدة سنوات، وكانت تؤجر في شهور الصيف فقط.

وقال "**هايدوك**" يكمل قصة منزله:

ثم اشتراها رجل يدعى "**هاهن**" وكان ألمانيًّا، وإذا سألتني عن صناعته فلن أجد لها وصفًا سوى أنه كان جاسوسًا لا أقل ولا أكثر.. جاسوس.. إنها لقصة مثيرة.

– نعم.. وهم قوم بعيدو النظر.. خذ مثلا موقع هذا المكان.. إنه أحسن مكان مناسب لإرسال الإشارات عبر البحر.. ولديك مرفأ تستطيع أن تخفي فيه قاربك البخاري.. لو أردت.. وقد صرف "**هاهن**" على المكان كله مبالغ طائلة.. فقد أنشأ سلما حجريا ضخمًا يصل المكان بالشاطئ.. والغريب في الأمر أن جميع الإنشاءات التي أجراها والتحسينات التي تمت في البناية نفسها لم يقم بها أي

مواطن.. فقد كان جميع العمال من الأجانب.

– أمر غريب ولا شك.

– وكنت أقيم في هذه المنطقة حينذاك، وقد أثار اهتمامي ما كان يفعله الرجل، فكنت أخرج من منزلي وآتي إلى هنا أراقب العمال الألمان.. ولما تحققت من غرابة الأعمال التي يقومون بها اتصلت برجال البوليس وأوضحت لهم شكوكي، ولكنهم لم يعيروا قولي أي التفات.؟. فإن الحرب مع "ألمانيا" كانت أمرًا بعيداً عن تصورهم.. وقد اعتبروني حينئذ من الرجعيين أو مجنوني الحرب.. ولكنني كنت أعلم.. أعلم أن أصدقاءنا الألمان قوم شديدو الصبر.. يعدون العدة لأي أمر من الأمور في تؤدة وعلى مهل. ولم تعجبني إطلاقًا أحوال ذلك الرجل "هاهن"، فأخذت أتحدث عن شكوكي لكل معارفي.. وأخيرًا تركت أحاديثي بعض الأثر، وتعرفت إلى أحد رجال البوليس، وأقنعته بشكوكي، فلم يجد غضاضة في مراقبة "هاهن" ويظهر أن هذا أحس بالمراقبة، فاختفى نهائيًا، فصدر الأمر لرجال البوليس بتفتيش المكان فوجدوا جهازًا لاسلكيًا، أخفي بمهارة في حائط حجرة الطعام.. كما وجدوا أوراقًا ذات أهمية عظمى. وخزانًا ضخماً للبترول تحت الجراج.. وغير ذلك.. وفي النهاية عرض المنزل للبيع، فاشتريته.. وإني أود أن ترى ما فيه.. هيا يا "ميدوز".

– أشكرك.. إني أود أن أراه.

وقام الرجلان، وقد أظهر "هايدوك" حماسة الطفولة، وهو يري ضيفه مكان جهاز اللاسلكي المدفون في حائط حجرة الطعام.. وكذلك مخزن البنزين تحت الجراج ثم «الحمامين الجميلين» وأدواتهما الغريبة ووسائل الإنارة المختلفة.. وبعد ذلك رأى الطريق الحجري المدرج الموصل إلى شاطئ البحر.. وعاد "هايدوك" يحدث ضيفه من جديد عن قيمة المكان كله من الوجهة الحربية.. ولم يدر العقيد "بلتشلي" مع الرجلين دورتهما هذه، ولكنه مكث حيث كان في الشرفة، يجرع كئوس الشراب، وقد أدرك "تومي" أن العقيد لم يترك واحداً من أصدقائه دون أن يحدثه عن الجاسوس الذي اكتشفه، وبعد فترة قام "بلتشلي"

وصحب "تومي" إلى "سان سوسي" .. وقال العقيد وهما في الطريق:

– إن "هايدوك" هذا رجل طيب.. ومع ذلك فإنه لا يترك الأمور تمر ببساطة، فقد سمعنا منه قصة الجاسوسية هذه مئات المرات.

ثم راح "بلتشلي" نفسه يقص على "تومي" إحدى مخاطراته الخاصة، ولم يكن "تومي" على استعداد لتتبع تفاصيل هذه القصة؛ إذ كان قد سرح بأفكاره الخاصة.

وكان "تومي" قد آمن حينئذ أن المرحوم "فاركوهار" الذي حل هو محله.. كان يسير في الطريق الصحيح عندما ذكر "سان سوسي" قبل وفاته.. كما تأكد بعد أن رأى ما رآه في «استراحة المهربين» وتلك الاستعدادات التي أعدها "هاهن" الألماني أن تلك المنطقة من المناطق التي يهتم بها العدو منذ عهد بعيد.. وأن نشاط "هاهن" لم يكتشف إلا بطريق المصادفة، ونتيجة لمجهودات الكوماندور المتواصلة.

وتذكر "تومي" قصة السيدة "برينا" أن زوجها– كما تقول– اشترى "سان سوسي" منذ أربعة أعوام تقريباً.. فهل هذه هي الحلقة الثانية..؟ إن كل شيء جائز ومحتمل.. وفكر في ذلك السكون والهدوء السطحي، الذي تمتاز به "سان سوسي" .. إنه سكون ظاهري يخفي وراءه كثيراً، والسيدة "برينا"– في نظره– هي البؤرة التي تتجمع فيها كل الإشاعات فيجب مراقبتها.. وإذا كانت السيدة "برينا" هي السيدة التي يرمز إليها بالحرف "م" فإنها تكون زعيمة أعمال الجاسوسية والطابور الخامس في هذه البلاد.. ولابد أن شخصيتها ليست معروفة إلا لرؤسائها.. ولكن.. لابد أنها تتصل بالطبقة التي تليها في الأهمية، وعلى "تومي" و"توبنس" ، أن يكتشفا هذه الطبقة.. ثم إن الانتفاع بـ «استراحة المهربين» ليس بالأمر المستحيل.. ففي الوقت المناسب يستطيع أسياد "سان سوسي" أن يجعلوه تحت تصرفهم.. لكن اللحظة المناسبة لم تأت.

كتبت "توبنس" خطاباً لابنتها "ديبورا" وآخر لـ"ديريك" ولدها، وخرجت بنفسها لتودعهما صندوق البريد وفي عودتها مرت بقمة التل المجاورة لـ" سان

سوسي" ، فاسترعى انتباهها شبحان وقفا يتبادلان الحديث، فتسمرت "**توبنس**" في مكانها، لما تبينت أن أحد هذين الشبحين، هو المرأة الغريبة التي رأتها بالأمس. وأن الشبح الآخر هو "**كارل فون دينيم**" .

وضايق "**توبنس**" عدم وجود مكان تستطيع الاختفاء فيه، كما لم يكن في استطاعتها الاقتراب منهما؛ لتسمع ما يدور بينهما من حديث دون أن يرياها.. وفوق ذلك فقد أدار الشاب الألماني رأسه في تلك اللحظة، ورآها.. فهمس بكلمات قلائل للمرأة الغريبة فافترقا.. وانحدرت المرأة مع التل بسرعة عابرة الطريق الرئيسي مارة بـ"**توبنس**" التي كانت في الناحية الأخرى.

أما "**كارل فون دينيم**" ، فقد انتظر حيث كان إلى أن وصلت "**توبنس**" ، فألقى إليها التحية بلهجة تنم عن الأسى.. فقالت "**توبنس**" على الفور:

– ما أشد غرابة مظهر هذه السيدة التي كنت تتحدث إليها يا سيد "**دينيم**" .

– نعم إنها من أواسط "**أوربا**" .. إنها بولندية.

– أحقًا. أهي صديقة لك؟

– أبداً. فأنا لم أرها قبل هذه اللحظة.

– لقد ظننت..

– كانت تسألني عن الطريق.. وكان حديثنا بالألمانية..؛ لأنها لا تكاد تفهم الإنجليزية.

– كانت تسألك عن الطريق؟

– وسألتني ما إذا كنت أعرف السيدة "**جودليب**" فأجبتها بالنفي.. فقالت إنها ربما أخطأت العنوان.

ورمقت "**توبنس**" "**كارل**" وهو يسير إلى جوارها.. وفكرت في هذه المرأة.. التي تسأل ساعة عن سيد "**روزنستاين**" .. وساعة أخرى عن السيدة "**جودليب**" .. وأحست بشكوك لا نهاية لها.. وخيل إليها أن الحديث بين "**كارل**" وتلك المرأة لابد قد استغرق وقتًا طويلا.. واستعادت في ذاكرتها

حديث "**كارل**" و"**شيلا**". لما قالت له: «يجب أن تكون على حذر».. وسارت "**توبنس**" إلى غرفة نومها وهي تفكر في "**كارل**" و"**شيلا**" والسيدة "**برينا**" صاحبة الفيلا.

وقبل أن تذهب إلى فراشها، اتجهت إلى مكتبها الصغير، وفتحت أحد الأدراج وكان به صندوق صغير.. فلبست قفازها وفتحت الصندوق.. إن به مجموعة من الخطابات وفوقها جميعًا ذلك الخطاب الذي تسلمته في الصباح من ابنها المزعوم "**رايموند**"، ففتحته "**توبنس**" باحتياط ثم ضمت شفتيها وقطبت وجهها.. إن الرمش الصغير الذي كان بين طيات الخطاب قد اختفى فذهبت بالخطاب إلى منضدة الزينة، واستعانت بأحد المساحيق الغامقة التي تستعملها في تظليل جفونها، فرشته على الخطاب، ثم نفضته.. فلم يظهر أي أثر لبصمات الأصابع.. فهزت "**توبنس**" رأسها في تأكيد. كان لابد من وجود بصمات.. بصمات "**توبنس**" نفسها على الأقل.. وقالت لنفسها.. يجوز أن يقرأ أحد الخدم خطاباتها بدافع حب الاستطلاع مثلا.. ولو أن ذلك مستبعد.. ولكن الخادم لا يفكر مطلقًا في إزالة آثار بصمات الأصابع.. هل هي السيدة "**برينا**"؟ أم "**شيلا**"؟ أم شخص آخر؟ إنه على كل حال شخص يهتم بحركات القوات البريطانية.

وبدأت تفكر في الاحتمالات المختلفة.. وفي وجوب إجراء تجربة لمعرفة الشخص أو الأشخاص الذين يهتمون بحركات هذه القوات.

وقضت "**توبنس**" الصباح التالي في فراشها.. حتى دخلت "**بتي**" إليها.. وكانت "**توبنس**" تحب الطفلة، وصعدت الطفلة على الفراش إلى جوار "**توبنس**"، وألقت إليها بكتاب من كتب الأطفال عنوانه أحلام "**ساندريلا**" وأخذت "**توبنس**" تمازح الطفلة وتداعبها وتروي لها بعض طرائف الكتاب.

وفجأة اندفعت السيدة "**سبروت**" إلى الحجرة وهي تقول:

– ها هي العزيزة. بحثت عنك في كل مكان أيتها الشيطانة الصغيرة.. كم أنا آسفة يا سيدة "**بلنكنسوب**".

كانت "**بتي**" قد حلت أربطة الحذاء، وبللتها جميعًا في كوب الحليب، وأخذت تعبث بها، وجلست "**توبنس**" في فراشها تضحك ثم قالت تقاطع السيدة "**سبروت**" التي انهالت اعتذاراتها:

– لا داعي لكل هذا يا سيدة "**سبروت**"، فالأربطة يمكن تجفيفها، وأنا التي أخطأت إذ لم ألاحظ ما تفعل.

– إذا سمحت.. سآتي لك بأربطة أخرى.

– لا.. لا.. أشكرك.. فلدي غيرها. كما أن هذه ستجف بلا شك.

وسحبت السيدة "**سبروت**" الطفلة من يدها. وقامت "**توبنس**" من الفراش لتنفذ ما عزمت عليه.

- 6 -

نظر "**تومي**" بعجب إلى الجزمة التي ألقت بها "**توبنس**" إليه وسأل:

– هل هي هذه؟

– نعم.

وتشمم رائحة الجزمة الغريبة، فقالت "**توبنس**":

– ابعدها عن ملابسك بقدر ما تستطيع.. وإلا فلن تقترب منك أية فتاة.

وتوالت الحوادث بعد ذلك:

فقد ظهرت رائحة غريبة في حجرة السيد "**ميدوز**".. وكان معروفًا بين نزلاء "**سان سوسي**" أنه رجل قانع قليل الشكوى.. ومع ذلك فإنه تحدث عن تلك الرائحة للسيدة "**برينا**" التي استغربتها، ثم قالت:

– ربما كان هناك ثقب في إحدى أنابيب الغاز.

وتتبع السيد "**ميدوز**" أنابيب الغاز في غرفته دون جدوى، وقال:

– لابد أن يكون هناك فأر ميت في الغرفة.

ولكن السيدة "**برينا**" شكت في الأمر.. فإن فأرًا واحدًا لم يسبق له أن دخل "**سان سوسي**".. وتناقش الرجل طويلا مع صاحبة المنزل.. وأخيرًا قال:

– إنني لا أستطيع أن أبيت ليلة أخرى في هذه الغرفة.

– لك الحق في ذلك.. ولكن يؤسفني جداً أنه لم يبق في المنزل كله غرفة لائقة، فإن الغرفة الوحيدة الخالية قد لا تروقك، فهي لا تطل على البحر.. ولكن إذا وافقت على الانتقال إليها مؤقتًا فتفضل.

ولم يكن لدى سيد "**ميدوز**" أي مانع فقبل الانتقال؛ لأن غرضه هو الابتعاد بقدر الإمكان عن هذه الرائحة الكريهة. وقادته السيدة "**برينا**" إلى غرفة تصادف أنها تقابل غرفة السيدة "**بلنكنسوب**".

أما الحادث الثاني، فإن السيد "**ميدوز**" المسكين أصيب بأعراض الإنفلونزا في تلك الليلة. وأخذ يعطس، ويغير مناديله طول الوقت.. ولم ير أحد طبعًا شرائح البصل التي وضعها في تلك المناديل، كما أن أحداً لم يشم رائحة البصل غيره، إذ كان قد عطر جميع المناديل بماء الكولونيا الذي يستعمله في حلاقة ذقنه.. وأخيراً اضطر السيد "**ميدوز**" المسكين.. أن يعتكف في غرفته تحت وطأة هذه الإنفلونزا الحادة.

وفي الصباح وصل السيدة "**بلنكنسوب**" خطاب من ولدها "**دوجلاس**".. وقد هللت عندما تسلمت هذا الخطاب إلى حد أن علم به كل من كان في "**سان سوسي**".. وكانت قد أشاعت أن هذا الخطاب لم يمر مطلقًا على الرقيب، فقد سلمه إليها أحد أصدقاء ولدها.. وهكذا استطاع "**دوجلاس**" العزيز أن يكتب لها بحرية.. واستطاعت هي بدورها أن تعرف من الحقائق ما لن تصرح به ولن تذيعه.. إن كل ما يقال ويشاع ليس شيئًا إلى جانب ما عرفت.

وبعد أن تناولت طعام الإفطار، صعدت إلى غرفتها.. ثم فتحت صندوق الخطابات، وأودعته خطاب "**دوجلاس**"، بعدها رشت عليه قليلا من مسحوق الأرز.. وضغطت عليه بأصابعها.. وخرجت من غرفتها وهي (تسعل).. فسمعت من الغرفة المقابلة «سعالا» آخر. ثم أذاعت في "**سان سوسي**" أنها ...

ذاهبة إلى محاميها في "لندن"، وأنها ستشتري بعض الحاجات من العاصمة.. فكلفها بعض النزلاء بشراء أشياء لا يجدونها في حوانيت "ليهامتن"..

وبينما هي خارجة من باب الحديقة، قابلت "كارل فون دينيم".. واقفًا وقد عقد يديه فوق صدره.. وأطرق مفكراً.. ولما رآها انحنى محييًا في وجوم وأدب.. فسألته:

– ماذا بك اليوم؟ هل هناك مشكلة؟

– مشاكل كثيرة.. إن مثلي كمثل من يمسك بالنار ولا يريد أن يحترق.. إني لا أستطيع الاستمرار على هذه الحال.. والوسيلة الوحيدة.. هي أن أنتهي من كل شيء.

– ماذا تعني؟

– إنك تفهمين ما أعني.. لقد أظهرت حنانك لي.. وتعلمين أنني هربت من بلادي لانعدام العدالة فيها، وللقسوة التي يعامل بها الأحرار هناك.. وقد أتيت إلى هذه البلاد لأجد الحرية.. وحقًّا إني أكره "ألمانيا" النازية ولكن.. لا أستطيع أبداً أن أتجرد من ألمانيتي.. إنني ألماني.. ألماني.

– يظهر أن هناك متاعب من هذه الناحية؟

– إنها متاعب نفسية.. فعندما أسمع عن طائراتكم تضرب مدننا.. وعن الجنود الألمان الذين يقتلون.. وعن الطائرات الألمانية التي تحترق، والمصانع التي تدمر.. وهي مصانع أهلي وعشيرتي.. وعندما أسمع ذلك العقيد.. آكل النار.. يقول وهو يقرأ صحيفته.. هؤلاء الملاعين هؤلاء الخنازير.. يصل بي الغضب إلى حد لا أستطيع احتماله.. وعلى هذا ترين أنني أفكر جديًّا في الانتهاء من كل شيء.

– هذا كلام لا معنى له.. أنا معك من ناحية.. فإحساساتك ملكك افعل بها ما تشاء.. ولكن يجب أن تقاوم.. فلا حيلة لك في تغيير الأوضاع.

– كم أود أن أعتقل على الأقل.. إن هذا ليريحني كثيراً.

– ربما.. ولكنك فيما علمت.. تقوم بعمل له أهميته.. وهو ليس عملا نافعًا

لـ"**بريطانيا**" وحدها.. ولكنه نافع للإنسانية كلها.

– نعم.. وأظنني وفقت إلى بعض الاكتشافات.

– هذا جميل ما دمت تعمل لخير الإنسانية.. أما من ناحية «الشتائم» التي تسمعها، فنحن معذورون في ذلك.. ولا تنس أنهم يفعلون نفس الشيء في "**ألمانيا**".

وتناول "**كارل**" يدها وقبلها.. ثم قال:

– إني أشكرك.. إن كل ما تقولين حق.. ولابد لي من الاستعانة بالصبر والجلد.

وسارت "**توبنس**" إلى المحطة وهي تفكر.. إن أقرب نزلاء "**سان سوسي**" إلى قلبها هو هذا الشاب.. ولكنه ألماني بكل أسف. وعلى الرغم من أنها لم تكن راغبة في الذهاب إلى "**لندن**" إلا أنها رأت وجوب ذلك.. فقد أذاعت الخبر.. وقد يحدث بالمصادفة– إذا لم تذهب– أن يراها أحد في أي مكان آخر فيشاع ذلك فوراً في "**سان سوسي**".. فيجب أن تذهب.. وما إن غادرت شباك التذاكر حتى قابلتها "**شيلا برينا**"!

– مرحباً.. إلى أين أنت ذاهبة؟ لقد حضرت لأتسلم طرداً.

– إلى "**لندن**".

– آه.. نعم.. نعم سمعتك تذكرين ذلك.. سأتسلم الطرد وآتي لمرافقتك إلى القطار.

وذهبت الفتاة ثم عادت لتبقى مع "**توبنس**" حتى تحرك القطار. فجلست "**توبنس**" على مقعدها تفكر. هل كان ذلك مصادفة! أم أن السيدة "**برينا**" أرسلت ابنتها خصيصاً للتأكد من سفر السيدة "**بلنكنسوب**"؟ وأن الأمر ليبدو كذلك.

ولم تستطع "**توبنس**" الاختلاء بـ"**تومي**".. حتى كان صباح اليوم التالي.. وكانا قد اتفقا على ألا يتقابلا في "**سان سوسي**".. فخرج السيد "**ميدوز**"– بعد أن خفت عنه وطأة الزكام – يتمشى إلى جوار الشاطئ، ثم جلس على أحد

المقاعد الحجرية المنتشرة.. وهناك رأته السيدة "**بلنكنسوب**" مصادفة.. وقالت بعد أن تأكدت ألا رقيب هناك:

– ماذا وراءك؟

– لقد قضيت يوماً من أصعب الأيام، إذ كاد عنقي يكسر من طول المراقبة.. ولكنني عرفت أشياء لا باس بها على كل حال.

– لا بأس على عنقك... حدثني عما عرفت.

– دخل الخدم طبعاً ليرتبوا غرفتك كما هي العادة.. ودخلت السيدة "**برينا**" أيضاً لتعنف الخادمة وتتعجلها في عملها.. كما دخلت "**بتي**".

– ثم من؟

– ثم شخص آخر.

– من؟

– "**كارل فون دينيم**".

– "**كارل**" أوه.. متى؟

– في وقت الغداء.. رأيته يسير متلصصاً في الشرفة ثم سار إلى غرفتك، ومكث هناك حوالي ربع الساعة ثم خرج.

– آه.

– إن هذا يكفي فيما أظن.

وأطرقت "**توبنس**". نعم إن هذا يكفي.. وتذكرت حديثها مع الشاب.. إنه ممثل بارع ولا شك، وكان على حق فيما قال.. إنه رجل وطني.. يخدم دولته.. وقد يقدره الإنسان لهذا السبب.. ولكنه يحطمه أيضاً.. ووجدت "**توبنس**" نفسها تقول:

– كم يؤسفني ذلك!

– وأنا أيضاً.. إنه شاب طيب.. ولكن.

– إن هذا هو ما نقوم به بالضبط لو كنا في "**ألمانيا**".. ومهما كان الأمر، فقد عرفنا على الأقل طرف الخيط.. إن "**كارل**" يعمل بالاشتراك مع "**شيلا**" وأمها..

وربما تكون السيدة "**برينا**" هي المرجع الأول.. ثم هناك تلك السيدة الغريبة التي كانت تحادث "**كارل**".

– ماذا نفعل الآن؟

– يجب أن نزور غرفة السيدة "**برينا**"، فربما وجدنا بها ما يهمنا. كما يجب أن نتعقبها لنعرف أين تذهب، ومن تقابل.. "**تومي**".. هيا نستدعي "**ألبرت**" ليساعدنا.

– آه.. "**ألبرت**".. إنها فكرة.. وسأرى إذا كان ذلك ممكنًا.

كان "**ألبرت**" يعمل منذ سنوات في أحد الفنادق.. ثم انضم إلى إدارة الأمن العام، ثم عمل تحت إمرة آل "**برسفورد**" طوال السنوات الماضية، ولما اعتزلوا العمل تركه هو الآخر، وافتتح مشربًا صغيرًا في جنوب "**لندن**".

وقالت "**توبنس**":

– إن "**ألبرت**" سيدهش عندما نستدعيه.. دعه يستأجر غرفة في فندق المحطة.. ومن هناك يستطيع أن يقتفي أثر من نريد.

– هذا جميل.. خاصة لأنني أرى استحالة إمكاننا مراقبة من نشتبه فيهم من سكان "**سان سوسي**". أما "**ألبرت**" فإن أحداً لا يعرفه. ثم يجب أن نبذل جهداً كبيراً لكشف القناع عن نشاط تلك المرأة البولندية التي تقولين إنها كانت تحادث "**كارل**". إذ يخيل إليَّ أنها حلقة الاتصال بين "**كارل**" والجانب الآخر من العصابة.

– طبعًا.. طبعًا.. فهي إما أن تأتي إلى هنا لتبلغ الأوامر أو لتتسلم رسائل وتقارير.. وأرجو أن نوفق إلى اقتفاء أثرها عند رؤيتها ثانية.

– ثم لا تنسي أن علينا زيارة غرفة السيدة "**برينا**" والسيد "**كارل**".

– لا أظن أننا سنجد شيئًا مهما في غرفة "**كارل**". ولا تنس أنه ألماني، والمفروض أنه معرض في أية لحظة لمهاجمة رجال البوليس، والمعقول أنه لا يحتفظ لديه بأي شيء يثير الشكوك. أما دخول غرفة السيدة "**برينا**" فهو من الصعوبة بمكان.. خاصة وأن ابنتها تحتل الغرفة في حالة غياب أمها. ثم لا تنس

أن "بتي" وأمها تنتقلان طوال النهار في كل مكان من الفيلا.. وكذلك السيدة "أوروك" التي تقضي معظم وقتها في غرفتها وبابها مفتوح على مصراعيه.

– أظن أن وقت الغداء هو أنسب الأوقات.

– كما استغله السيد "كارل"؟

– نعم.. وأستطيع مثلا ادعاء إصابتي بصداع فجائي ثم أذهب إلى غرفتي.. ولكن لا.. إذ ربما يتطوع بعضهم لمرافقتي وتمريضي.. إذن يحسن أن أنسحب إلى غرفتي في هدوء قبيل موعد تناول الغداء، دون أن أكلم أحداً.. وإذا سئلت بعد ذلك أقول إنه الصداع الذي احتجزني.

– من الأصوب أن أقوم أنا بهذه المأمورية، فمن السهل عليّ أن أدعي البحث عن قرص من الأسبرين إذا رآني أحد.. أما وجود سيد محترم يعبث في غرفة السيدة "برينا" فإنه أمر يدعو إلى الاشتباه.

– تعنين أنه يؤدي إلى فضيحة.. وهو كذلك.. إنما يجب الإسراع.. فكما علمت اليوم.. يظهر أن هناك أنباء سيئة. ثم تركها "تومي"، وسار حتى مكتب البريد، ومنه اتصل تليفونيًّا بالسيد "جرانت"، وقال له إن العملية الأخيرة تمت بنجاح، وإن "ك" غارق فيها إلى أذنيه.. وبعد ذلك كتب "تومي" إلى "ألبرت"، ثم اشترى إحدى المجلات وعاد إلى "سان سوسي".

وبينما هو في طريقه إلى الفيلا سمع صوت الكوماندور "هايدوك" المرح يناديه من سيارته الصغيرة ويعرض عليه أن يوصله إلى حيث يريد.

فصعد "تومي" إلى السيارة شاكراً.. وقال "هايدوك":

– سمعت أنك أصبت بنزلة برد؟

– كانت مجرد إنفلونزا عارضة.. وهي تصيبني في مثل هذا الوقت من كل عام.

– ولكنك الآن أحسن حالا.. هل لك في لعب الجولف؟

– طبعاً.

– إذن موعدنا غداً في الساعة السادسة.. إذ إني ذاهب في الصباح لحضور

اجتماع مقاومة من يهبطون بالبراشوت.. إنه واجبي كما تعلم.

– وهو كذلك.. وشكراً.

وكانا قد وصلا إلى أبواب "**سان سوسي**".. فسأله "**هايدوك**":

– "**ميدوز**".. كيف حال "**شيلا**" الجميلة؟

– بخير على ما أظن.. فإني لا أراها كثيراً.

– ها.. ها.. لا تراها كثيراً؟ إنها فتاة جميلة.. ولكنها نفور.. وأظنها تقابل ذلك الفتى الألماني كثيراً.. ضاعت الوطنية.. ثم لم يبق لها حاجة بالمسنين أمثالي وأمثالك.. ومع ذلك فهناك شباب من رجالنا على كثير من الرشاقة.. يقبلون على الترفيه عنها.. ولكني لست أدري لم تترامى بين أحضان هذا الألماني الفظ.

– على رسلك.. إنه قادم.

– ليس يهمني في كثير أو قليل أن يسمع ما أقول. وكم أود أن ألهب ظهر السيد "**كارل**" بالسياط، فإن أقل ألماني يدافع الآن عن بلاده ولا يتسكع هنا رعباً من القتال.

وهكذا اتضحت وطنية الكوماندور "**هايدوك**" وهو يدور بسيارته إلى «استراحة المهربين». أما "**توبنس**" فقد وصلت إلى أبواب "**سان سوسي**" الخارجية في الساعة الثانية إلا عشرين دقيقة، وسارت في ممرات الحديقة حتى وصلت إلى باب حجرة الانتظار ووقفت لحظة حتى مرت الخادمة عبر الممر، ثم سارعت فصعدت الدرج بعد أن خلعت حذاءها ولبست خفًّا وسارت فوراً إلى حجرة السيدة "**برينا**".. وهناك اعتراها ضيق شديد. فهذه العملية التي تقوم بها ليست محببة إلى النفس.. ولكنها عادت فتذكرت أنها الحرب.. وسارت قدمًا إلى منضدة التواليت، وفي سرعة عالجت فتح جميع الأدراج إلا واحداً وجدته مغلقًا.. لعله هذا.. وكان معها بضع أدوات استعارتها من "**تومي**" لإنهاء هذه المهمة.. وفتح الدرج.

وجدت فيه نحو عشرين جنيهاً ورقًا، وبضع نقود فضة، وحقيبة بها مجوهرات

وحزمة من الأوراق. فبدأت تفحصها واحدة واحدة في عجلة.. فليست لديها فرصة للتأمين الطويل.. رأت عقد شراء "**سان سوسي**".. فواتير.. حسابات البنك، كمية من الخطابات.. ومر الوقت سريعًا.. قرأت خطابين من صديق في "**إيطاليا**".. ليس فيهما شيء.. وخطابًا من "**سيمون مورتيمر**" في "**لندن**".. وغيره وغيره.. ثم خطابًا من.. "**بات**" قرأت فيه: هذا آخر خطاب أكتبه لك يا عزيزتي "**إيلين**".. ولم تستطع "**توبنس**" متابعة القراءة فأعادت الخطاب كما كان بعد أن طوته في عجلة وردته إلى مكانه من الدرج.. وفتح الباب.. ودخلت السيدة "**برينا**" متجهة إلى رف عليه بضع زجاجات.

ودارت "**توبنس**" وواجهت صاحبة الغرفة:

– أوه.. السيدة "**برينا**".. أرجو ألا تؤاخذيني، لقد دخلت حجرتك تحت تأثير صداع عنيف.. لأبحث عن قرص من الأسبرين.. فقد ضاعت أنبوبتي.. وكنت متأكدة أن لديك من هذا النوع.. فقد سمعتك تقولين ذلك للآنسة "**منتون**".

وشملت السيدة "**برينا**" الغرفة بنظراتها ثم قالت في حدة:

– طبعًا.. لدي منه كثير.. ولكن على أي حال.. لماذا لم تأتي إليّ وتطلبي إلي؟

– كان ذلك واجبًا.. ولكنني أعلم أنكم تتناولون طعام الغداء. ولم أر من المناسب أن أزعجكم.

فمرت السيدة "**برينا**" أمام "**توبنس**" واتجهت إلى أحد الرفوف وتناولت زجاجة الأسبرين وقالت:

– كم تريدين؟

وأجابت السيدة "**بلنكنسوب**": يكفيني ثلاثة. وسارت فوراً نحو حجرتها، وطلبت إلى الخادمة بضع زجاجات من الماء الساخن.

وقالت السيدة "**برينا**":

– أذكر أن لديك كمية كبيرة من الأسبرين.. في منضدة الزينة.

– لست أدري أين وضعت الأنبوبة.. فقد بحثت عنها ولم أجدها.

– آه.. إذن اذهبي واستريحي حتى موعد تناول الشاي.

وعادت "**توبنس**" إلى غرفتها، واستلقت على سريرها متوقعة دخول السيدة "**برينا**" بين لحظة وأخرى، وعلى الرغم من أن السيدة "**برينا**" قابلت وجود "**توبنس**" في غرفتها ببساطة.. إلا أن "**توبنس**" حسبت حساب الدرج الذي فتحته، ولم تجد فرصة لإعادة غلقه. كما أن الأوراق لم تنتظم كما كانت.. وأخذت "**توبنس**" تطمئن نفسها.. لو شكت السيدة "**برينا**" في اضطراب حاجاتها، فستشك في الخدم لا في السيدة "**بلنكنسوب**" المحترمة.. وحتى إذا شكت فيها فستعتقد أنها ما عبثت في الغرفة إلا تحت تأثير حب الاستطلاع المجرد عن الغرض.. ولكن.. إذا كانت السيدة "**برينا**" هي تلك الجاسوسة التي يرمزون لها بحرف "م" فلابد أنها سترى في السيدة "**بلنكنسوب**".. رقيبة عليها.. وفجأة تذكرت "**توبنس**" أنها لم تذكر لمخلوق المكان الذي وضعت فيه أنبوبة الأسبرين الخاصة بها.. فقد كانت في الدرج الذي تحتفظ فيه بخطاباتها الخاصة.. إذن.. لابد أن هناك من يعبث بغرفتها.. ودقة بدقة!

- 7 -

سافرت السيدة "**سبروت**" في اليوم التالي إلى "**لندن**"، وتركت "**بتي**" في عناية سكان "**سان سوسي**" بعد أن نبهت على الطفلة بعدم إزعاج أهل الدار. وتعلقت "**بتي**" بـ"**توبنس**" لتلاعبها.. ومنعت الأمطار الشديدة خروجهما للنزهة، فلجأتا إلى حجرة نوم الفتاة واتجهت "**بتي**" إلى حيث تحتفظ بلعبها، فسألتها "**توبنس**" أي هذه اللعب تفضل، فقالت "**بتي**":

– احكي لي حكاية.

فجذبت "**توبنس**" أحد الكتب.. ولكن الطفلة صاحت:

– لا.. لا.. هذا قذر.

وعجبت "**توبنس**" ونظرت إلى عنوان الكتاب ثم سألت "**بتي**" :

- هلا تعجبك أحلام "**سندريلا**" ؟

- كلا.. إنه قذر.

وتناولت "**بتي**" الكتاب وأعادته إلى مكانه، وسحبت كتابًا آخر من نهاية الرف وكان بنفس العنوان! فأدركت "**توبنس**" أن الكتب القديمة أهملت وأن السيدة "**سبروت**" اشترت مجموعة جديدة للطفلة.. إنها من تلك الأمهات اللاتي يتطيرن من القذارة.. ويخشين على أطفالهن من عواقبها.. وأخذت "**بتي**" تعبث بالكتاب، ثم أعادته وتناولت غيره ثم غيره، وكانت "**بتي**" تختطف الكتب من "**توبنس**" وتخبئها وتحاول هذه العثور عليها.. وهكذا انقضى الصباح دون أن تشعر بمرور الوقت..

وبعد الغداء ذهبت "**بتي**" إلى سريرها، واستدعت السيدة "**أوروك**" "**توبنس**" إلى غرفتها وكانت غرفة ضل النظام طريقه إليها.. تفوح فيها روائح النعناع والنفتالين.. وانتشرت فيها الصور بغير نظام.. صور أبناء وإخوة وأبناء إخوة السيدة "**أوروك**" حتى خيل إلى "**توبنس**" أنها في معرض للصور.. أقيم في العصر الفيكتوري.. وقالت السيدة "**أوروك**" :

- إن لك طريقة عجيبة في معاملة الأطفال يا سيدة "**بلنكنسوب**" .

- إن ذلك يرجع إلى طول المدة التي ربيت فيها ولدي.

- ولديك! سمعت أنهم ثلاثة.

- آه طبعًا.. إنهم ثلاثة.. نعم ثلاثة.. ولكن أعني ولدي المتقاربين في السن فقد كنت أقوم بتربيتهما، وهما في هذه السن تقريبًا معًا.. هذا ما قصدت.

- آه.. اجلسي يا سيدة "**بلنكنسوب**" واعتبري نفسك في غرفتك.

وأحست "**توبنس**" بنوع من الضيق الذي يحسه المرء وهو في زيارة إحدى الساحرات.

وقالت السيدة "**أوروك**" أخيرًا:

- والآن يا عزيزتي.. ما رأيك في "**سان سوسي**" ؟

فأجابت "توبنس" بكلام عام.. ولكن السيدة "أوروك" قاطعتها بقولها:

ـ أود أن أسألك ما إذا كنت قد لاحظت شيئًا غريبًا في "سان سوسي"؟

ـ شيئًا غريبًا! ماذا تعنين؟ كلا.. لم ألحظ.

ـ حتى ولا عن السيدة "برينا"؟ فقد أدركت أنك تراقبينها.. بل إنك تشددين الرقابة عليها.

واحمر وجه "توبنس"، ولكنها تمالكت نفسها وقالت:

ـ إنها.. إنها.. سيدة حلوة المعشر.

ـ إذن هي ليست.. أعني إنها سيدة مجتمعات.. إذا كان الظاهر كالباطن.. ولكن إذا لم تكن.. أهذا هو رأيك؟

ـ الواقع يا سيدة "أوروك" إنني لا أفهم.. سيدة مجتمعات.. تتظاهر.. لم تكن.. ماذا تعنين؟

ـ ألم يخطر ببالك يومًا أن أية واحدة منا قد تكون فعلا خلاف ما تتظاهر به أمام الناس؟ فالسيد "ميدوز" مثلا.. يبدو لي أنه رجل غريب التصرفات.. فأحيانًا أراه يمثل الرجل الإنجليزي الغبي المحدود الأفق، وأحيانًا أسمع منه كلمة أو أرى منه ما يدل على أنه أبعد الناس عن الغباء.. الا ترين في هذا غرابة؟

فأجابت "توبنس" بحزم:

ـ أوه.. إنني لا أرى في السيد "ميدوز" إلا أنموذجًا للرجل العادي.

ـ إذن هناك غيره.. وأظن أنك تعرفين واحداً منهم على الأقل.

فهزت "توبنس" رأسها نفيًا.. فعادت السيدة "أوروك" تقول:

ـ إن الاسم الذي أقصده يبدأ بحرف "ش".

ـ ولم تستطع "توبنس" أن تتمالك أعصابها أكثر من ذلك.

وظهرت عليها أمارات الغضب، فقد خيل إليها أنها في موقف استجواب.. وأن عليها أن تدافع عن شيء عزيز عليها، فقالت في حدة:

ـ إن كنت تقصدين "شيلا" فهي فتاة طائشة ثائرة.. وقد كنا جميعًا كذلك في مثل سنها.

- لا.. لا.. لا.. ليست هذه من أقصد.. ألا تعلمين أن اسم الآنسة "**منتون**" الأول "**شيرلي**"؟

- أوه.. إذن تقصدين الآنسة "**منتون**"؟

- لا.. ليس هذا ما أقصد.. ولكن.

ولم تقو "**توبنس**" على احتمال الموقف أكثر من ذلك.. إن هذه السيدة تتلاعب بها كما يتلاعب القط بالفأر.. فقامت "**توبنس**" من مكانها واتجهت نحو الشرفة تراقب نزول المطر وقد تضاربت الأفكار في رأسها.. فكيف تتخلص من موقفها هذا..؟ وكيف سمحت لنفسها أن تقع في هذا الشرك؟ وتوقف تفكيرها لحظة.. رأت خلال النافذة التي يتساقط عليها المطر أوراق الأشجار تنفرج.. وتظهر من خلالها تلك المرأة التي كانت تحادث "**كارل فون دينيم**" منذ أيام.. وكانت تتلفت يمنة ويسرة بعينين جامدتين لا حياة فيهما.. حتى خيل إلى "**توبنس**" أنها تمثال يتحرك.. وكانت تتطلع وتتطلع إلى نوافذ "**سان سوسي**".. وليس في نظراتها أي معنى.. رباه.. بل هناك معنى واضح كل الوضوح، إنها نظرات مجنون، وطافت برأس "**توبنس**" خيالات عديدة.. إن هذه المرأة تمثل الأشباح التي تسكن البيوت المهجورة.. واستدارت "**توبنس**" لتواجه السيدة "**أوروك**" وغمغمت ببضعة ألفاظ ثم انا فعت سريعًا من باب الحجرة.. ونزلت الدرج. فالحديقة.. فالطريق.. إلى قمة التل.. فلما وصلت كانت المرأة قد اختفت.. فعادت "**توبنس**" من جديد إلى الحديقة وأخذت تجول فيها.. بين الشجيرات غير عابئة بما أصابها من هطول الأمطار.. وكانت تقتفي آثار أقدام المرأة الغريبة، متوقعة أن تقودها هذه الآثار إلى حيث اختفت فجأة.. وقادتها الآثار إلى أبواب الفيلا، فأحست "**توبنس**" باختناق لم تدر له سببا وشعرت بأن نكبة ما وشيكة الوقوع فقد حدثها انقباض قلبها بذلك.. ولكنها لم تستطع أن تخمن ما هذه النكبة.. وما كان يخطر ببال مخلوق أن يخمن..

وبعد أن اعتدل الجو وانقطع هطول الأمطار، ساعدت الآنسة "**منتون**" "**بتي**"

على ارتداء ملابس الخروج استعداداً لنزهة في المدينة القريبة.. ولتشتري الآنسة "**منتون**" لـ"**بتي**" أوزة من البلاستيك، وكانت "**بتي**" تصيح في أرجاء الدار جزلة.

ولاحظت "**توبنس**" – عندما دخلت من باب الدار – أن هناك عودين من الثقاب قد ألقيا على المنضدة التي تتوسط الردهة الخارجية في غير عناية، فعرفت أن السيد "**ميدوز**" يقضي وقته في مراقبة السيدة "**برينا**"، فاتجهت "**توبنس**" إلى حجرة الانتظار ووجدت السيد والسيدة "**كايلي**" وكان زوجها في حالة يرثى لها.. يشكو من الضجيج الذي تحدثه الطفلة، ويقول إنه لم يأت إلى "**سان سوسي**" إلا هرباً من الضجيج.

فقالت "**توبنس**":

– من الصعب التحكم في الأطفال وهم في هذه السن.

– هه.. هذا كلام لا معنى له.. إنها آفة العصر الحديث.. أن يترك الأطفال يعبثون كما يحلو لهم.

فقالت "**توبنس**" تغير مجرى الحديث:

– أود أن تحدثني عن رأيك الخاص في طرق المعيشة في "**ألمانيا**"، فقد سمعت أنك قمت برحلات إلى بلاد كثيرة.

إنني كما تقولين يا سيدتي العزيزة.. رجل ذو تجارب وخبرة وفي رأيي أنه يجب أن تتفاهم "**بريطانيا**" و"**ألمانيا**".. فالنظام النازي في رأيي هو خير الأنظمة صلاحية للبلدين.

وقطع الحديث دخول الآنسة "**منتون**" تتبعها الطفلة حاملة أوزتها الجديدة.

وما هي إلا لحظات حتى أعد الشاي.. وفي تلك الفترة رؤيت السيدة "**سبروت**" داخلة، بعد عودتها من "**لندن**"، وهي تقول:

– أرجو ألا تكون "**بتي**" قد أزعجت أحداً.

ثم وجهت الحديث للطفلة:

– كيف قضيت الوقت يا "**بتي**"..؟

- قذر...

ولم يعلق أحد على رد الطفلة؛ إذ كان مفهومًا أنها لا تعني ما تقول، وأخذت السيدة "**سبروت**" تتحدث عن مشترياتها من "**لندن**" خلال احتسائها الشاي.. وانتقل الجميع إلى الشرفة، فقد بدأت الشمس تتسرب من تحت الغمام.. وكانت "**بتي**" تملأ الجو بدعابتها وجريها في كل مكان.. واستمر الحال كذلك.. والنزلاء يتحدثون عن الإشاعات وما ينتظر أن يحدث حتى قطعت السيدة "**سبروت**" الحديث فجأة قائلة:

- يا للسماء! إنها السابعة الآن.. كان يجب أن تنام الطفلة منذ ساعات.. "**بتي**".. "**بتي**".. "**بتي**".

ولم يكن أحد يلحظ غياب الطفلة في أثناء الحديث.. وعادت السيدة "**سبروت**" تصيح وقد تزايد قلقها:

- "**بتي**".. أين أنت..؟

وقامت السيدة "**سبروت**" تبحث عن الطفلة.

وقالت الآنسة "**منتون**" إن الطفلة لابد أن تكون في مكان ما.. وقالت "**توبنس**" لابد أنها اختبأت في المطبخ إذ كان أطفالها يختبئون فيه.

ودار البحث في كل مكان.. ولكن بدون جدوى.. فقد اختفت الطفلة اختفاء تاما.

وظهر الغضب على وجه السيدة "**سبروت**".. وقالت:

- ربما تكون قد خرجت من الفيلا..؟

فخرجت "**توبنس**" مع السيدة "**سبروت**" ووقفتا تتلفتان هنا وهناك، ولكنهما لم يريا سوى صبيٍ على دراجة يحادث خادمة الفيلا المواجهة لـ"**سان سوسي**".. فتقدمت "**توبنس**" نحو الصبي وسألته إذا ما كان قد رأى فتاة صغيرة تخرج من الفيلا، فأجابت الخادمة:

- أهي تلبس فستانًا قصيراً أخضر اللون..؟ رأيتها منذ نحو نصف ساعة.. تسير في هذا الطريق مع سيدة.

– سيدة..! أية سيدة؟!

– إنها سيدة.. غريبة الهيئة.. وعلى كتفيها شال رخيص.. فخيل إليّ أنها إحدى المتسولات.. وإني أذكر أني رأيتها أكثر من مرة تحوم حول هذا المكان.

وتذكرت "**توبنس**" فوراً، ذلك الوجه الذي رأته يتلصص بعد الظهر في الحديقة ولكنها لم تكن ترى علاقة بينه وبين "**بتي**".. ولم تترك السيدة "**سبروت**" لها فرصة للتفكير أكثر من ذلك فصاحت:

– "**بتي**".. عزيزتي "**بتي**".. طفلتي.. لابد أن تكون تلك المرأة إحدى الغجريات.. فردت "**توبنس**" على الفور:

– لا.. لا.. إن وجهها لا يدل على ذلك.. فهي جميلة.. ولا يمكن أن تكون من الغجريات.

فنظرت إليها السيدة "**سبروت**" في عجب ودهشة، مستفسرة. فقالت "**توبنس**":

– رأيت هذه المرأة بعد ظهر اليوم.. تتلصص خلال شجيرات الحديقة.. كما أذكر أنني لمحتها مرة قبل ذلك.. تحادث "**كارل فون دينيم**".. نعم لابد أن تكون نفس المرأة.

وقالت الخادمة تؤكد كلام "**توبنس**":

– نعم.. نعم.. إنها نفس المرأة.. إن شعرها الأشقر لا ينسى.

فصاحت السيدة "**سبروت**":

– أوه.. يا ربي.. ماذا أفعل؟

فقالت "**توبنس**"، وهي تضع ذراعها في ذراع السيدة "**سبروت**":

– تعالي إلى الفيلا.. لنطلب البوليس.

فسارت السيدة "**سبروت**" معها وهي تقول:

– لست أدري كيف رضيت "**بتي**" أن تسير هكذا مع الغرباء.. دون أن تصيح.

– إنها صغيرة جداً كما تعلمين.. وقد تكون المرأة مخبولة..

وكانت "**توبنس**" تقول هذا؛ لتخفف وقع الصدمة على السيدة "**سبروت**". إذ كانت تعلم أن المرأة الغريبة في كامل قواها العقلية، وقد شكت في أن يكون لـ"**كارل**" علاقة بحادث الاختطاف هذا، وقد تبددت شكوكها لما أقسم "**كارل**" أن لا علم له بأي شيء عن هذا الموضوع، وقد استغربه كذلك الجميع.. وبعد أن شرحت "**توبنس**" كل ما تعلم، قال العقيد "**بلتشلي**" موجهًا كلامه للسيدة "**سبروت**":

- لا تقلقي يا سيدتي.. سأذهب حالا إلى مركز البوليس. فقالت السيدة "**سبروت**":

- انتظر لحظة.. فقد تكون هناك.

ثم جرت مسرعة إلى غرفة "بتي"، وعادت وهي تلهث وهجمت على العقيد "**بلتشلي**" وخطفت سماعة التليفون من يده وهي تقول:

- لا.. لا.. لا تبلغ البوليس.. يجب ألا نبلغ البوليس.

وتهاوت على أحد المقاعد وهي تبكي، فالتف الجميع حولها، وقد اشتد بهم العجب، يحاولون تهدئتها، وبعد لحظة قالت بصوت خنقته العبرات وهي ترفع شيئًا في يدها:

- وجدت هذه.. في حجرتي.. كانت مربوطة إلى تمثال قطة من الحجر.. إنها إنذار لي. فتناول السيد "**ميدوز**" الورقة وقرأ فيها:

«لقد وضعنا يدنا على طفلتك، وسنخبرك فيما بعد بما تفعلين، ولكن.. إذا اتصلت بالبوليس، سنقتل الطفلة.. أغلقي فمك وانتظري تعليماتنا وإلا..».

وكانت موقعة بجمجمة وعظمتين متقاطعتين.

وتكلم الجميع في نفس الوقت:

- القتلة المتوحشون.. الوحوش.

ولكن صوت العقيد "**بلتشلي**" علا جميع الأصوات وهو يقول:

- كلام فارغ.. مستحيل.. يجب أن أبلغ البوليس حالا.. فهو وحده الذي يستطيع أن يضع حدًا لهذه المهزلة.

وتحرك ثانية متجهًا إلى آلة التليفون.. ولكن السيدة "**سبروت**" صرخت، فصاح بها:

– يا سيدتي العزيزة.. لابد من ذلك.. فما هذا الإنذار إلا حيلة مبتذلة لمنعنا من اقتفاء أثر الخاطفين السفلة.

– سيقتلونها.

– مستحيل.. إنهم لا يجرءون.

– إني لا أسمح.. أنا أمها.. وأنا التي أقرر.

– أنا فاهم.. فاهم.. ولكن استمعي إلى نصيحتي، يا سيدتي فتبليغ البوليس هو الحل الوحيد.. ألا توافقني يا سيد "**ميدوز**"؟

فهز "**تومي**" رأسه إيجابًا.. وعاد "**بلتشلي**" يقول:

– وأنت يا "**كايلي**"؟ إذن انظري يا سيدة "**سبروت**".. "**ميدوز**" و"**كايلي**" يوافقاني.

– آه.. نعم.. كلكم رجال.. اسأل السيدات.

فقالت "**توبنس**" على الفور:

– إني مع السيدة "**سبروت**".

وقالت السيدة "**أوروك**":

– لن تجد أما واحدة توافقك.

وعادت "**توبنس**" تقول:

– وأنت يا سيد "**كارل**"..؟ إننا لم نسمع رأيك بعد.

فأجاب "**كارل**" بتؤدة:

– إنني أجنبي كما تعلمون.. ولا أعلم شيئًا عن نظام بوليسكم.. وما إذا كان جديرًا بهذه المهمة.

ودخلت السيدة "**برينا**" في تلك اللحظة، فسألت:

– ماذا حدث؟

وسمعت القصة من الجميع.. فقالت في لهجة آمرة وكأنها سيدة الموقف:

– لا أوافق على الالتجاء إلى البوليس مطلقًا.. إن له طرقه العقيمة الملتوية، ولكني أرى أن تبحثوا عن الطفلة بأنفسكم.

وقال "**بلتشلي**" ثانية:

– إنها فكرة.. هيا بنا.. ولا أعتقد أنهم ابتعدوا كثيراً.

فقالت السيدة "**سبروت**":

– نريد سيارة.. فلنتصل بـ"**هايدوك هوفن**".. فلديه سيارة، هيا بنا.. وسنستطيع اقتفاء أثر تلك المرأة بلا شك.. وسآتي معكم.

– لا يا سيدتي.. لا لزوم لمجيئك.. اتركي الأمر لنا.

– مستحيل.

وما هي إلا ثوان، حتى كانوا قد اتصلوا بـ"**هايدوك**".. فحضر بسيارته على الفور، وجلس "**تومي**" إلى جواره، وجلس العقيد "**بلتشلي**" والسيدة "**سبروت**" و"**توبنس**" في المقعد الخلفي.. وقبل أن تتحرك السيارة، عادت السيدة "**سبروت**" إلى الفيلا وغابت لحظة ثم رجعت ولما استفسرت منها "**توبنس**" عن سبب صعودها، فتحت حقيبة يدها وأرتها مسدسًا صغيراً.. وقالت:

– أتيت بهذا من غرفة العقيد "**بلتشلي**".. وكنت سمعت منه يومًا أن لديه مسدساً وأعتقد أنه يفيدنا الآن.

وفكرت "**توبنس**" في عواطف الأمومة، إن المرأة قد تفزع عندما ترى سلاحًا ولكنها لا تتوانى عن استعماله إذا هدد فلذة كبدها خطر.

وسارت السيارة.. إلى محطة السكة الحديد، كما اقترح الكوماندور "**هايدوك**" إذ إن قطاراً قد قام منذ عشرين دقيقة ويرجح أن يكون الخاطفون قد ركبوه، وعندما وصلوا إلى المحطة بدأوا تحرياتهم كل في جهة، وعاد الجميع إلى السيارة دون جدوى.. وقال "**هايدوك**":

– لابد أن الخاطفين كانوا قد أعدوا سيارة وأرسلوا تلك المرأة، لتختطف الطفلة ثم ساروا بها إلى مكان مجهول.

فقالت "**توبنس**" :

- إذن.. لنضع أنفسنا في مركز الخاطفين.. أين تظنون أنهم كانوا ينتظرون بالسيارة؟ في مكان ما قريب من "**سان سوسي**".. ولكن أي مكان يصلح لإخفاء سيارة لا تجتذب إليها الأنظار.. فلنر! لقد سارت المرأة مع "**بتي**"، وانحدرتا مع التل.. وهناك في بطن التل، مكان يصلح لمثل ذلك.

وفي تلك اللحظة تقدم إليهم رجل قصير القامة يبدو عليه التردد والإحجام.. يعرج قليلا في مشيته وقال:

- لا تؤاخذاني فقد استمعت عرضاً إلى حديث السيد.. وهي مصادفة غريبة إذ يخيل إليّ أنني رأيت الطفلة التي كان يسأل بواب المحطة عنها.

فصاحت السيدة "**سبروت**" :

- تقول إنك رأيتها.. أين؟

- كانت مع سيدة غريبة المنظر.

- أين سارتا؟

- في هذا الاتجاه.. تجاه القمة..

فقال "**هايدوك**" وهو يجلس إلى عجلة القيادة ويدير المحرك:

- تقول إنها كانت تسير تجاه القمة.. أليس كذلك؟

- بلى.. عبر الميدان الكبير.

قفز المتبقون في السيارة.. قبل أن يستكملوا الاستماع إلى بقية حديث الرجل.. وسارت السيارة مسرعة في شوارع البلدة.. حتى وصلت إلى ميدان فسيح وهناك قال العقيد "**بلتشلي**" :

- الأفضل أن ننزل هنا، ونصعد إلى القمة سيراً على الأقدام.

فاجاب "**هايدوك**" :

- هذا معقول جداً ولكني سأبذل جهدي لأصعد المنحدر بالسيارة على الرغم من أن في ذلك مخاطرة.. ولكن.

فقاطعته السيدة "**سبروت**" قائلة:

– نعم.. نعم.. أرجوك أن تصعد.. فقد تأخرنا.. ويجب أن نسرع حتى نلحق بهما.

فقال الكوماندور كما لو كان يحادث نفسه:

– أرجو أن نكون وراء أثر صحيح وألا يكون ذلك القزم قد رأى امرأة أخرى.. معها طفلة.. ومع ذلك.. فلست أرى لهما أي أثر..

وصعدت السيارة تزحف حتى وصلت إلى القمة.. ثم أخذت تنحدر.. فتوقف "هايدوك" لحظة وتناول منظاره المعظم.. الذي لا يفارقه وأخذ ينظر فيه لحظات في كل اتجاه ثم صاح قائلا:

– ها هما.. إنني أراهما.. هناك.

ونظر الجميع إلى حيث يشير.. كانت هناك نقطتان سوداوان في الأفق البعيد تتحركان وعادت السيارة تنهب الأرض من جديد.. وبدأت المطاردة.. فرأوا النقطتين تنكشفان رويداً رويداً.. إنهما شبحان، أحدهما طويل والآخر قصير.. إنهما يتضحان قليلا، سيدة تجر وراءها طفلة.. نعم.. إن الطفلة ترتدي ثوباً أخضر اللون.. إنها.. إنها "بتي".. وصاحت السيدة "سبروت".. وقال العقيد "بلتشلي" وهو يصفق:

– ها نحن قد وصلنا إليهما.

وفجأة أحست المرأة بدنو السيارة منها.. فصرخت ورفعت الطفلة محتضنة إياها، وأخذت تجري بها نحو المنحدر.. فتوقفت السيارة، إذ إنها لا تستطيع أن تتبعها في ذلك الطريق الوعر.. وخرج ركاب السيارة منها، وكانت السيدة "سبروت" أولهم.. وبدأت تجري نحوهما حتى أصبحت على بعد عشرين خطوة منهما فتوقفت.

كانت المرأة ممسكة بالطفلة بين ذراعيها وقد وقفت على حافة المنحدر، فصاح "هايدوك":

– رباه.. أخشى أن تقذف بالطفلة إلى الهاوية.

ووقفت المرأة، وقد تجسم الحقد في عينيها، وصاحت بكلمات لم يفهمها

أحد، وأخذت تنظر إلى الهاوية حينًا، وإلى المهاجمين حينًا آخر.. وكان واضحًا أنها تهدد بقذف الطفلة في الهاوية.

فوقف الجميع مبهوتين وقد أقلقهم الرعب دون أن يستطيعوا الحركة خوفًا من الفاجعة المنتظرة.. ومد "**هايدوك**" يده في جيبه وأخرج مسدسًا ضخمًا وصاح:

– أنزلي الطفلة أو أطلق النار.

فضحكت المرأة الغريبة، وزاد احتضانها للطفلة حتى أصبحتا كأنهما جسد واحد.. فغمغم "**هايدوك**":

– إني لا أستطيع إطلاق النار خشية إصابة الطفلة.

وقال "**تومي**":

– هذه المرأة مخبولة بلا شك، وأتوقع أن تقفز هي والطفلة إلى الهاوية بعد لحظة. وفي تلك اللحظة، دوى صوت طلق ناري، فترنحت المرأة، ثم سقطت ولا تزال الطفلة بين ذراعيها.. وجرى الرجال إلى حيث سقطت، بينما وقفت السيدة "**سبروت**" تترنح وفي يدها المسدس يتصاعد الدخان من فوهته، ثم خطت بضع خطوات إلى الأمام.

ركع "**تومي**" إلى جوار الجسدين، فرأى وجه المرأة، وكانت عيناها مفتوحتين، وقبل أن تنبس بحرف شهقت الشهقة الأخيرة، وتراخت ذراعاها.. فتخلصت منها "**بتي**"، وجرت نحو السيدة "**سبروت**" التي كانت قد تصلبت أعضاؤها كأنها تمثال، فرمت المسدس بعيدًا، ثم صاحت وهي تعانق الطفلة:

– إنها سليمة.. سليمة.. "**بتي**".. "**بتي**" العزيزة.

ثم همست في جزع:

– هل.. هل ماتت؟ هل قتلتها؟

فقالت "**توبنس**" في عزم:

– لا تفكري فيها الآن.. فكري في "**بتي**" العزيزة.

فأخذت السيدة "**سبروت**" تتشنج في صوت مبحوح وسارت "**توبنس**" إلى حيث وقف الرجال وكان "**هايدوك**" يقول:

– إنها معجزة دامية.. وأعترف أنني لا أستطيع إصابة مثل هذا الهدف.. وأني لا أتصور أن السيدة "**سبروت**" سبق لها استعمال المسدس قبل هذه المرة.. إنها معجزة الغريزة لا أكثر ولا أقل.

وقالت "**توبنس**":

– الحمد لله.. فقد نجت الطفلة على كل حال.

- 8 -

وبعد أيام.. بدأ التحقيق في حادث مصرع المرأة الغريبة بعد أن قام البوليس بتحرياته، لتحقيق شخصيتها، وعرف أنها تدعى "**واندا بولونكا**" من اللاجئين البولنديين، وكانت السيدة "**سبروت**" قد نقلت بالسيارة إلى "**سان سوسي**"، بعد وقوع الحادث محطمة الأعصاب، وقد تعاون الجميع على الترفيه عنها.. بمختلف الوسائل، واتصل الكوماندور "**هايدوك**" بالبوليس، وأرشدهم إلى حيث وقعت المأساة، ولولا اهتمام الصحف بالأخبار الحربية لاحتل هذا الحادث أبرز مكان فيها.

واتخذ التحقيق مجراه العادي، فاستدعيت السيدة "**كالفنت**" المشرفة على شئون اللاجئين في تلك المقاطعة، فأدلت بمعلوماتها عن "**واندا بولونكا**" وتتلخص في أنها كانت من عائلة بولونية، قتل النازيون كل أقاربها، وأنها كانت شبه مخبولة، وأن سلوكها كان موضع شبهة، فقد وجد معها مال كثير بالنسبة إلى من هم في مركزها، وقد ظهر من مراقبتها أنها ليست ممن يضمرون الخير لـ"**بريطانيا**".

أما السيدة "**سبروت**"، فقد غرقت في دموعها، عندما استدعيت للتحقيق، وكان المحقق رفيقًا بها، وقد فسرت ما حدث أنه كان بلا وعي

منها.

وسألها المحقق عما إذا كانت قد اعتادت استعمال الأسلحة النارية، فأجابت بالنفي ثم نفت معرفتها بالمرأة القتيل قبل الحادث.

أما "**هايدوك**"، فقد أدلى بكل ما قام به في عملية المطاردة، ولما سأله المحقق عما إذا كان متأكداً من أن المرأة قد بدا عليها النزوع للقفز إلى الهاوية أجاب:

- إما أنها كانت تنوي ذلك أو على الأقل أن ترمي بالطفلة فذلك ما أعتقده، وقد خيل إليّ أن الحقد متجسم في نظراتها. وقد فكرت شخصيًّا في إطلاق النار عليها، ولكنها كانت قد اتخذت من الطفلة درعًا.. وقد تحملت السيدة "**سبروت**" المسؤولية فأنقذت الطفلة.

وأخذت السيدة "**سبروت**" تتشنج من جديد. أما شهادة السيدة "**بلنكنسوب**"، فكانت قصيرة ولم تخرج عما أدلى به الكوماندور. وتلا ذلك السيد "**ميدوز**"، وقد أمن على الأقوال السابقة، وبعد إنهاء التحقيق اعتبر المحقق أن الحادث تم تحت تأثير ظروف قاهرة لا حيلة للفاعلة فيها، وأن القتل وقع فعلا ولكن دون سبق إصرار أو ترصد أو حتى تفكير فيه، وهكذا اعتبرت السيدة "**سبروت**" غير متحملة مسؤولية ما فعلت.

وفي اليوم التالي، تقابل السيد "**ميدوز**"، والسيدة "**بلنكنسوب**" ودار بينهما حديث طويل عن تلك القضية الغريبة التي فاجأتهما، وقال "**تومي**":

- إن مجرى الحوادث - من كل ناحية - لا يعجبني مطلقًا.

وقد وافقته "**توبنس**".. فقد كان الجيش الفرنسي، يتراجع بدون توقف، وكان الجلاء عن "**دنكرك**" على أشده كما كان سقوط "**باريس**" متوقعًا في أية لحظة.

وقال "**تومي**":

- وماذا عن "**كارل فون دينيم**" والمرأة البولندية؟ هل تعتقدين أنهما كانا يعملان سويًّا؟

– لابد أنهما كانا مرتبطين بطريق ما.. ولا تنس أنني رأيتهما يتحادثان.

– إذن لابد أن يكون "كارل" هو الذي دبر الاختطاف. لماذا يختطفون هذه الطفلة بالذات؟ ومن هم.. آل "سبروت"؟.. لا أعتقد أنهم من الأغنياء.. ثم إنهم عديمو الاتصالات الحكومية التي قد ينتفع بها العدو مثلا.

– إني أفهم ذلك يا "تومي".. وبودي لو كشفت السر.

– وهل لدى السيدة "سبروت" أية فكرة عن سبب الاختطاف؟

– إن تلك المرأة.. أعني السيدة "سبروت".. ليست لها مقدرة على التفكير وكل ما تقوله.. إن هذا هو ما يفعله الألمان بأعدائهم.

– تلك الغبية.. إنها لا تعلم أن الألمان قوم في غاية الذكاء، فهم لا يختطفون فاراً إلا إذا كان هناك من الأسباب القوية ما يدعو إلى اختطافه.

فقالت "توبنس":

– أعتقد أن السيدة "سبروت" تستطيع أن تدرك السبب لو أنها فكرت وحاولت معرفته.. فلابد أن يكون هناك سبب.. نعم.. لابد أن تكون هناك معلومات ما.. تعرفها هي، دون أن تعلم أن هذه المعلومات هي السبب.

– هل حاولت أن تقنعي السيدة "سبروت" أن تعمل على تحريك ذهنها بعض الشيء؟

– نعم حاولت.. ولكن دون جدوى.. إن ما يهمها.. أن "بتي" عادت إليها، ثم لا تنس إحساسها بأنها قد أصبحت قاتلة، في نظر نفسها على الأقل.

– إن النساء مخلوقات عجيبة.. في لحظة خيل إليّ أن السيدة "سبروت"، تستطيع قتل فرقة بأكملها لاستعادة طفلتها.. والآن أراها تموت فزعاً لمجرد ذكر القصة.

– لقد التمس لها المحقق العذر.

كان هذا طبيعيًا.

– أعتقد أن عدم إدراك قيمة ونتائج استعمال المسدس هو الذي دفعها إلى تحريك زناده.. فلو أنها كانت فكرت في العواقب المحتملة لما أقدمت على

إطلاقه.

– أذكر أن شيئًا كهذا ورد ذكره في «التوراة» عن سيدنا "**داود**" و"**جالوت**" الفلسطيني.

– أوه.. لقد طافت بذهني فكرة مماثلة.. ثم عدت فنسيتها في الحال.

– هل كانت عن المقلاع الذي قذف به "**داود**" ذلك الفلسطيني فأرداه قتيلا..؟

– لا.. لا.. انتظري لحظة.. إنه كان عن "**سليمان الحكيم**". عن معابد "**سليمان**" وكنوزه، والحريم.

– كفى.. كفى.. إنك تصعب الأمور.. ما علينا.. كم أود أن أذكر بماذا كان وجه "**واندا**" يذكرني.. فقد أحسست عندما رأيتها لأول مرة، أن وجهها ليس غريبًا عليّ.

– هل تعتقدين أنك رأيتها في مكان ما قبل الآن؟

– كلا.. فأنا متأكدة أنني لم أرها من قبل.. ولكنني..

– إن "**شيلا برينا**" وأمها يختلفان في منظرهما عن "**واندا**" تمام الاختلاف.

– نعم.. ومع ذلك يا "**تومي**".. فإني أظن أن ثمة علاقة، بين ذلك الإنذار وآل "**برينا**".. ويخيل إليّ أن واحدة منهما هي التي وضعته.

– إذن تعتقدين أن آل "**برينا**" و"**كارل**" و"**واندا بولونكا**" شركاء؟

– نعم.. ألا تذكر اللحظة التي تدخلت فيها السيدة "**برينا**"؟ ثم ألا تذكر أيضًا أنها كانت في صف من عارض في تبليغ البوليس.. وأنها ملكت زمام الموقف كله؟

– وهكذا.. ألا تزالين تعتبرينها "م"؟

– بلى.. ألست من رأيي؟

– بلى..

– لماذا يا "**تومي**".. هل لديك فكرة أخرى؟ ألا تحدثني عنها؟

– أفضل ألا أحدثك عنها في الوقت الحاضر على الأقل، فإن تخميناتي ما زالت غير مركزة.. بل على العكس، أعتقد أننا أمسكنا بطرف الخيط الذي يؤدي إلى "ن" وليس إلى "م" كما تعتقدين.. ولهذا أفضل أن يعمل كل منا– ولو بتخميناته– منفرداً.

وكان "**تومي**" يفكر في نفسه.. إن "**بلتشلي**" شخصية لا غبار عليها.. ثم إنه كان متحمساً لتبليغ البوليس.. ولكنه في نفس الوقت، كان واثقاً بأن أم الطفلة لن تقبل.. وعلمه بوجود الإنذار، وفهمه لعقلية الأم، جعلاه على ثقة بالنتائج، ومع ذلك.. فإن العكس جائز، وعلى أية حال.. وعاد "**تومي**" يسأل نفسه من جديد.. لماذا تختطف "**بتي سبروت**"؟!

وعندما انصرفت "**توبنس**" متجهة إلى غرفتها، لم تلحظ وقوف سيارة البوليس بباب "**سان سوسي**".. فقد كانت غارقة في تأملاتها حتى وصلت إلى باب غرفتها، ولكنها تنبهت بعد أن خطت الخطوة الأولى.. وصاحت:

– "**شيلا**"!

واستدارت الفتاة وواجهت "**توبنس**".. كان الذعر والأسى مرتسمين على وجهها فقالت:

– كنت أنتظرك يا سيدة "**بلنكنسوب**"، وإني سعيدة إذ حضرت.

– ما الخبر؟!

– لقد قبضوا على "**كارل**".

– من؟ البوليس؟

لقد رثت "**توبنس**" لحال الفتاة.. إنها مغرمة بـ"**كارل فون دينيم**"، وحتى لو كان كلاهما– في نظرها على الأقل– متهماً بالخيانة الوطنية، فإن تقدير عاطفة الحب من وجهة النظر الإنسانية أمر لا تستطيع "**توبنس**" إلا أن تحس به ولا تغفله.. وعادت "**شيلا**" تقول:

– ماذا أفعل؟

وارتجفت "**توبنس**" لبساطة السؤال.. فلم تجد ما تقول سوى أن غمغمت:

– أوه يا عزيزتي.

– لقد أخذوه.. وهكذا لن أراه ثانية.. ماذا أفعل؟ نعم.. ماذا أفعل؟

وانفجرت تبكي بحرارة من كل قلبها، ثم تهاوت على الفراش.. فجلست "**توبنس**" إلى جوارها تمسح على رأسها وقالت:

– ربما لا يجدون شيئاً ضده، فلا تجزعي.. وكل ما في الأمر أنهم سيعتقلونه، ولا تنسي أنهم سيعتقلون كل رعايا الأعداء.

– لم يكن هذا ما قالوه.. إنهم يفتشون غرفته الآن.

– لا شك في أنهم لن يجدوا فيها ما يؤذيه.. أليس كذلك؟

– لن يهم البوليس أن يكون بريئاً أو مذنباً.. إنهم سيلصقون به التهمة.

– هذا خطأ.. بل مستحيل.. إنك تثقين بالناس يا "**شيلا**"، وتطمئنين إلى كلامهم أكثر من اللازم.. ولعل هذا هو موقفك حيال "**كارل**".. ولعلك كنت على خطأ.

– إذن أنت أيضاً ضده.. أوه.. فقد ظننتك تميلين إليه بعض الشيء.

– استمعي إليّ يا "**شيلا**".. إن الميل أو عدمه ليس لهما دخل في الوقائع المادية، فهذه البلاد و"**ألمانيا**" في حالة حرب.. وهناك وسائل عديدة يخدم بها المرء وطنه.. منها أن يحصل – مثلا –على معلومات يرسلها إلى وطنه من خلف الخطوط.. وهو عمل فيه كثير من الشجاعة وإنكار الذات، ولكن القانون الدولي لا يعترف به.

– هل تظنين أن "**كارل**"؟

– ربما.. ربما كان يخدم وطنه عن هذا الطريق.. إن هذا محتمل.. ربما كان عمله أن يأتي إلى هذه البلاد كلاجئ، وأن يتظاهر بعدائه الشديد للنازية، وهكذا يستطيع أن يحصل على ما يريد من معلومات.

– هذا لا ينطبق على الواقع.. فإني أعرف "**كارل**" جيداً.. وقد عرفت قلبه كما عرفت عقله الذي لا يفكر إلا في العلم وفي عمله، وهو يحس أنه مدين لـ"**إنجلترا**" لأنها آوته ومنحته الفرصة ليعمل فيها، ولو أنه أحياناً– عندما يهان–

يحس بالمانيته.. ويتالم.. ولكنه يكره النازيين وما يدعون إليه وبخاصة إنكارهم لحرية الفرد.

– هذا ما يقوله من كان في مثل مركزه.

– إذن أنت تعتقدين أنه جاسوس؟

– هذا ما أظنه.. إنه مجرد احتمال.

– إذن فيؤسفني أنني لجات إليك لمساعدته.

وخرجت الفتاة بعد أن صفقت الباب خلفها.

*****

– رفع الرجل المسن سنارته من الماء، ثم ارتكز على دفة القارب وقال:

– لا شك في ذلك.. وإني أخشى أن يكون..

فاجاب "تومي":

– نعم، ويؤسفني ما حدث، فإنه شاب لا باس به.

– إنهم لا يختارون سوى أمثاله من الشباب الشجعان لمثل هذه المهمات.. ومع كل، فقد وجدوا ورقة كتب فيها بالمعادلات الكيميائية أسماء العمال الذين يشتغلون تحت إمرته في المصنع والذين يمكن التأثير عليهم.. كما عثروا على مذكرات عن مشروع كيميائي مريع لتسميم الأغذية، أعده السيد "**كارل**".

– ألا يمكن أن تكون هذه الأوراق قد دست عليه..؟

– أوه.. هذا افتراض زوجتك بلا شك.. لها الحق في ذلك.. فهو فتى في ريعان الشباب.. ولكني شخصيًا لا أعتقد في براءته.. فذلك الحبر السري الذي وجدناه في المعمل مخبأ بحذق ومهارة، وتلك المادة السامة التي صبها على هيئة أزرار وكان يذيبها في الماء ثم يبلل به أربطة الأحذية.. تلك الأربطة التي وجدنا مئات منها معلقة في حجرته لتجفيفها، إن هذه أدلة لا تقبل الشك.

وعندما عاد "تومي" ليقص على "توبنس" خلاصة هذا الحديث صاحت:

– أربطة أحذية.. ماذا تقول! إن هذا يفسر كل شيء.

– ماذا؟!

– "**بتي**" أيها الغبي.. الا تذكر ماذا كانت تعمل في غرفتي! عندما حلت أربطة حذائي وبللتها في كوب الحليب.. ظننت ذلك حينئذ عبث أطفال.. ولكنها لابد رأت "**كارل**" يفعل ذلك فقلدته.. ولعله خشي أن تقول الطفلة شيئًا عما رأته فاتفق مع تلك المرأة على اختطاف "**بتي**".

– وهكذا يتضح كل شيء.

– نعم.. وكم أود أن تنكشف لنا بقية الأمور.. فالأحوال الحربية العامة في غاية الخطورة.. وكل سواحل "**فرنسا**" أصبحت في أيدي العدو وأصبح الغزو قريب الحدوث.

– كان "**كارل**" حلقة في السلسلة ولعل السيدة "**برينا**" هي الرأس المدبر.

– نعم.. ولكننا لم نجد ما يدينها.

– وهي ليست من الغباء بحيث ترمي بنفسها بين أيدينا.

– وعلى ذلك يمكننا اعتبارها "**م**".

فهز "**تومي**" رأسه موافقًا وقال:

– إذن فعلينا أن نتابع مراقبتها وعليك الاتصال بـ"**ألبرت**"..

– اتصل أنت به.. إذ سأذهب للعب الجولف.

- 9 -

– يخيل إليّ أن الأيام الماضية قد عادت من جديد يا سيدتي.

– أرجو ذلك يا "**ألبرت**".. وكيف حال زوجتك؟

– إنها بخير كما تعلمين عند أقاربها في "**ويلز**".

– عسى ألا يكون اشتراكك معنا في العمل يعطل أعمالك الخاصة؟

– بالعكس يا سيدتي، فكم كنت أود العودة معكما من جديد.. ولكن

الظروف لم تسمح من ناحيتكما.. وقد حاولت في إدارة المباحث وفي إدارة الأمن العام فاحتجوا بكبر سني.. وقالوا لي انتظر فقد نحتاج إليك.

– إن منطقهم غريب.. وقد قاسينا منه يا "**ألبرت**".

– أعتقد أن هذه فرصتنا للعمل ضد هؤلاء الألمان– الملعونين– وأرجو أن تعذريني على هذا الوصف يا سيدتي.

– حسن يا "**ألبرت**".. والآن أفهمك ما أريد أن تقوم به..

كانت كرة الجولف تجري في طريقها وسط الملعب عندما سأل "**تومي**" الكوماندور "**هايدوك**":

– منذ متى تعرفت إلى "**بلتشلي**" يا "**هايدوك**"؟

– "**بلتشلي**"؟ دعني أتذكر.. أوه.. منذ حوالي تسعة شهور.. وأذكر أنه أتى إلى هذه المنطقة في الخريف الماضي.

– قلت إنه صديق لأحد أصدقائك؟

– هل قلت أنا ذلك؟ لا أظن.. وأذكر أنني قابلته هنا.. في النادي.

– إنه شخص محوط بالأسرار على ما أرى..!

– أسرار..! "**بلتشلي**" العجوز..! هذا أغرب وصف للرجل.. لو قلت إنه رجل عسكري التفكير، أو محدوده، أو ما شابه ذلك، لكنت أوافقك، ولكن وصفك هذا له.

– لعلي وصفته هذا الوصف نتيجة لما سمعته عنه من بعضهم.

– ماذا تعني؟

– لا شيء.. إنه مجرد حديث عابر سمعته.

– كل ما علمته عنه أنه كان في فرقة الهوزار.

– هل أنت واثق؟

– أنا؟ لا.. لست متأكداً.. ولكن حدثني يا "**ميدوز**".. هل علمت عنه أمراً؟

– لا.. أبداً.. فقط..

– أكاد أدرك ما تعني.. تقصد أن أحداً لا يعلم شيئًا عن ماضيه.. وأنه منذ نزل بهذه المنطقة لم يتصل به مخلوق.. ولم يتصل هو– فيما أعلم– بأحد.

– آه.. هل ترى أن نواصل اللعب؟

واتخذ كل منهما موقفه الجديد في ساحة اللعب، وبعد جولة عاد "**هايدوك**" يسأل:

– ماذا سمعت عنه؟

– لا شيء.

– لا حاجة بك إلى كل هذا التحفظ معي يا "**ميدوز**".. لقد تعودت الاستماع إلى مختلف الإشاعات، وإني أكاد أخمن المسألة.. هل يخفي "**بلتشلي**" حقيقته ويظهر لنا بغيرها؟

– هذا مجرد فرض.

– ماذا يفترضون؟ أنه ألماني؟ إن ذلك مستحيل.

– آه، طبعًا.. هذه الناحية لا غبار عليها.

– ثم لا تنس كيف كان متحمساً للقبض على ذلك الفتى الألماني، وكيف صرح عدة مرات بوجوب شنقه.. ولعمري لقد كنت أوافقه على رأيه كل الموافقة، فقد سمعت أن ذلك الفتى أعد مشروعاً لتسميم مياه الشرب في هذه المنطقة.. ذلك الوغد الذي كان يعيش بيننا نكرمه ونحسن استقباله!

وأسف "**تومي**" كل الأسف على الفرصة التي ضاعت منه، والتي كان قد أعدها لاستدراج الكوماندور إلى هذا الحديث.. فقد انضم إليهما في تلك اللحظة بعض أعضاء النادي وعرضوا عليهما الذهاب إلى النادي لتناول المشروبات.. وبعد أن جلسوا جميعًا بعض الوقت قال "**هايدوك**" بعد أن نظر إلى ساعته:

– أرجو قبول عذرنا يا سادة.. فنحن– "**ميدوز**" وأنا– على موعد.

وأتى "**تومي**" على قوله فخرجا، ووافق "**تومي**" أن يتناول عشاءه مع الكوماندور في «**استراحة المهربين**»، وقام بخدمتهما خلال تناول الطعام ساقٍ

في منتصف العمر. كان يؤدي واجبه كما لو كان في أعظم مطاعم "**لندن**" .. وانتهز "**تومي**" فرصة خروجه من الحجرة وأبدى إعجابه به، فقال الكوماندور:

– أجل إنني سعيد الحظ إذ عثرت على "**آبل دور**" .

– وكيف عثرت عليه؟

– أعلنت عن حاجتي لساقٍ متمرن.. وكان أول من أجاب الإعلان وقدم لي شهادات مترفة من مخدوميه السابقين.

وعندما بدآ يحتسيان القهوة.. قال "**تومي**" :

– ماذا كنت تقول عندما كنا نتحدث عن "**بلتشلي**" ؟

– ماذا كنت أقول..؟ أترى.. أترى هذه الأضواء التي تلوح في البحر.. أين منظاري..؟ إني أعتقد أن هذه بوادر الغزو.

وبدأ "**تومي**" يتتبع الأضواء.. واستطرد "**هايدوك**" يقول:

– ها هم أولاء يسيرون من نصر إلى نصر.. ونحن ماذا نفعل.. نحتسي الشراب ونتحدث عن السقاة.

وكان "**آبل دور**" قد دخل ومعه زجاجة الشراب وبعض الكئوس.. وراح "**تومي**" يراقب الرجل وهو يملأ كأسه.. وقال في نفسه.. كان يجدر أن يسمى هذا الساقي "**فريتز**" لا "**آبل دور**" . إن هيئته وتقاطيعه أقرب إلى الهيئة الألمانية من أية هيئة أخرى.. أما طريقة نطقه باللغة الإنجليزية فلا شك في أنه تعلمها من طول إقامته في البلاد.. وأخذ يمعن في التأمل.. ترى أين رأى هذا الرأس! وهذا الوجه قبل الآن وكان الكوماندور يقول:

– نعم إننا نتحدث في موضوعات تافهة.. ومن وقت إلى آخر يطلبون إلينا ملء تلك الأوراق السخيفة.. التي يختص بعضها بتحقيق الشخصية والبعض الآخر بالتموين وبعضها..

– تلك الأوراق التي يسالوننا فيها عن عمرنا ثم عن اسمنا.. ويقول لك الموظف المختص في شراسة:

– انطق.. ما اسمك.. تكلم.. "**ن**" أو "**م**" .

وقفزت زجاجة الشراب من يد الساقي الممتاز.. وانتثرت محتوياتها على قميص "تومي" ثم سقطت على الأرض، وارتجف الساقي وأخذ يقول متلعثماً:

– آسف. سيدي.. آسف.

وانفجر غضب "هايدوك" وصاح:

– ما هذا الذي فعلت أيها الغبي المخبول.. ماذا تظن أنك تفعل أيها الخنزير.. واستمر "آبل دور" في اعتذاراته المتكررة وهو يجمع الأدوات المبعثرة وتأثر "تومي" لحاله.. وفجأة عادت الرقة إلى الكوماندور فقال "تومي":

– تعال لتغسل يديك. وقام الرجلان إلى الحمام ذي الأجهزة العصرية الحديثة.

ودخل "تومي" الحمام ليغسل يديه بينما وقف الكوماندور في غرفة النوم المجاورة يقول:

– لعلي أغلظت القول يا "تومي" للساقي.. ولكن اعذرني. فقد ضايقني ما حدث.

وغسل "تومي" يديه ثم وقف يجففهما ولم يلحظ أن قطعة من الصابون انزلقت على أرض الحمام الملساء.. فلما استدار ليخرج عثرت رجله بها.. فانفرجت رجلاه كما لو كان أحد راقصي الباليه واصطدمت إحدى يديه بصنبور الماء واصطدمت الأخرى بباب آخر في الحمام.. وانزلقت رجله حتى صدمت (المغطس) وفي طرفة عين اختفى وانكشف الحائط عن مخبأ غريب به جهاز لاسلكي ضخم.

وفي تلك اللحظة نفسها. توقف صوت الكوماندور عن الحديث وظهر واقفاً بباب الحمام.

وفي نفس اللحظة أيضاً لمعت أضواء في ذهن "تومي".. وضعت كثيراً من الأمور في نصابها.

هل كان أعمى حتى تلك اللحظة.. إن ذلك الوجه الإنجليزي العادي لم يكن

سوى قناع.. لماذا لم يحس أن هذا القناع يخفي وراءه صفات الضابط البروسي الفظ..! ذلك الذي لا يغتفر خطيئة لأحد مرءوسيه.. لقد تجلى ذلك عندما انسكب الشراب من يد الساقي المرتعشة.. ذلك الساقي الغبي الذي لم يحتمل صدمة ذلك السؤال.. وهكذا تتالت الاستنتاجات في رأس "**تومي**" وتداعت المعاني..

أرسل العدو رسوله الأول "**هاهن**" فاعد المكان، واستخدم عمالا أجانب دون أن يهتم بلفت الأنظار إليه حتى يتم العمل.. فيتدخل رجل من كبار رجال البحرية الإنجليزية المتقاعدين لا ترقى إليه الشبهات هو الكوماندور "**هايدوك**".. ويكشف عن سر هذا الرجل.. ومن الطبيعي جداً أن يتقدم لشراء المكان، ويدور يتحدث عن القصة حتى يضايق بها من يستمع إليها.. وهكذا استقر "**ن**" في مركزه المعد له في مكان على ساحل البلاد، وتحت أمره كل الوسائل الميسرة للاتصال بالخارج عن طريق الأجهزة التي أخفيت بمهارة وحذق.. أو عن طريق أركان حربه المنبثين في كل مكان داخل البلاد، وبخاصة في "**سان سوسي**" مركز قيادته.

ولم يستطع "**تومي**" أن يخفي إعجابه بإحكام الخطة، إذ لم يتطرق إليه أي شك في الرجل.. ولولا تلك الحادثة غير المتوقعة، ما انكشفت الأمور له على هذا النحو.. وقد طافت هذه الأفكار جميعها في ذهن "**تومي**" في ثوان أدرك بعدها أن موقفه أصبح في غاية الخطورة، وأن عليه تمثيل دور الإنجليزي الغبي، عله ينجو بجلده.. فتمالك نفسه، وعدل ملابسه، وجمع ما انتثر من جيوبه، ثم قال موجهاً حديثه للعملاق المنتصب بباب الحمام بعد أن رسم على شفتيه ابتسامة ركز فيها كل ما استطاع من بلاهة:

- يا للعجب.. حقاً إن ما نراه في منزلك من الغرائب يثير الدهشة والعجب.. هل هذا أحد أجهزة "**هاهن**" الغريبة؟

وكان "**هايدوك**" قد وقف بالباب دون أن يتحرك.. وخيل إلى "**تومي**" أنه تمدد حتى ملأ فراغ الباب كله.. فسرت في بدنه قشعريرة وأحس بالعرق البارد

يغمره، وتذكر أن هناك الساقي أيضًا.. ومن يدري؟ وقطع تيار أفكاره صوت "**هايدوك**" يقول ضاحكًا:

– إنه أمر مثير للضحك يا "**ميدوز**".. فقد قفزت في الهواء كابرع لاعبي (الباتيناج)، ولست أعتقد أن حركة كهذه تحدث للمرء مرتين في العمر.. جفف يديك وتعال إلى الغرفة الأخرى.

وتبعه "**تومي**" وهو في غاية التنبه لأقل حركة أو بادرة، فإن عليه أن يخرج سليمًا من هذا المكان وفي الحال بأي ثمن.. وامتدت يد "**هايدوك**" إلى كتف "**تومي**" بحركة قد تكون طبيعية، وقد لا تكون.. وقاده إلى غرفة الاستقبال فدخل أولا وتبعه "**هايدوك**" الذي لم ينس أن يغلق الباب خلفه.. ثم قال في صوت طبيعي وهو يشير إلى "**تومي**" بالجلوس:

– لدي ما أقوله لك أيها الطفل العجوز.. إنه موضوع غريب.. ولن أقوله لك إلا لأنك موضع ثقتي.. وعليك أن تنساه مباشرة يا "**ميدوز**".. هل تفهم ما أعني؟

فاعمل "**تومي**" جهده ليظهر بمظهر المتلهف على سماع الحديث.. بينما سحب "**هايدوك**" كرسيًا وقربه إلى حيث جلس "**تومي**"، ثم قال:

– إن المسألة يا "**ميدوز**" لم ولن يدركها أحد مطلقًا.. إني أعمل في قلم المخابرات.. فهز "**تومي**" رأسه نفيًا وزاد من تصوير تلهفه..

فاستطرد "**هايدوك**":

– إنه سر في غاية الخطورة.. بل هو من أسرار الدولة العليا يا "**ميدوز**".. ونحن نرسل من هنا بعض الإشارات السرية، وأكرر القول إنه سر في غاية الخطورة، بل هو سر مميت لو عرف.. أتفهم ما أعني؟

– طبعًا.. طبعًا. ما أغرب هذا! ثق بأنني سأنسى هذا الحديث.

– يكفي ما علمت.. وإني أعتذر إليك.. ولكن الحادث كله لم يكن متوقعًا.

وكان "**تومي**" يحسب لكل كلمة يقولها ألف حساب، إذ لم يكن يتوقع أن يصدق الكوماندور اصطناعه البلاهة، ولكنه لم يجد سواها بابًا يحتمل أن

يخرج منه، وكان يعتمد على أن الغرور صفة من صفات أغلب الرجال، أمثال "**هايدوك**" الذي يعتقد نفسه انه أذكى من سائر المخلوقات، وأنه تبعًا لذلك يعتبر السيد "**ميدوز**" هذا، رجلا إنجليزيًا غبيًا يصدق كل ما يقال له.. فاستمر "**تومي**" يتكلم مظهراً إعجابه ودهشته دون أن يلقي سؤالا واحداً على الكوماندور، الذي أخذ بدوره يتكلم ببساطة البحار الإنجليزي واختفى الضابط البروسي الفظ خلف قناع صفيق، ولكن "**تومي**" كان يراقبه بعين جديدة على ضوء ما اكتشف.

وبعد هنيهة وقف "**ميدوز**" وقال:

– لقد تأخرت كثيراً، ويحسن بي أن أذهب الآن، وأعدك بألا أفتح فمي بما رأيت أو علمت، كما أعتذر إليك عما حدث، فقد كان بمحض المصادفة.

وكان يقول في نفسه.. هل سيسمح له بالخروج يا ترى؟

واتجه نحو الباب.. ثم سار في الردهة.. وأصبح على خطوات من الباب الخارجي. ولمح في غرفة على يمينه "**آبل دور**" يعد أدوات المائدة للصباح التالي.

إذن.. إن الأمور تسير كما يهوى.. وسيتركه الغبيان يخرج.. بالسر الخطير.

ووقف الرجلان– "**هايدوك**" و"**ميدوز**"– بالباب الخارجي، يضربان موعداً لمباراة جولف، على أرض النادي يوم السبت المقبل..

وسمعا أصواتًا قادمة في الطريق.. كانا رجلين من أعضاء النادي، يعرفانهما معرفة سطحية، ولما رأيا الكوماندور وأشار إليهما "**ميدوز**" بالتحية توقفا وتبادل الجميع بعض الحديث، ثم استأذن "**تومي**" من الكوماندور، وسار في طريقه إلى "**سان سوسي**" بصحبة الرجلين اللذين سارا في نفس الاتجاه.

– ها هو ذا، قد أصبح طليقًا بعد أن انكشف له السر الخطير.. وسقط "**هايدوك**" الغبي في الفخ دون أن يشعر.

وتوالت أفكاره من كل اتجاه.. ماذا يقدر لاكتشافه هذا.. سيهز إدارة المخابرات

هزًا عنيفًا.. ووصل إلى أبواب "**سان سوسي**".. وحيا زميليه في الطريق.. وسار في الممر يصفر لحنًا.. وما إن استدار في المنعطف المظلم الذي يؤدي إلى الدرج، حتى أحس بشيء ثقيل يهبط على رأسه فسقط على وجهه، وغاب عن الوجود.

- 10 -

كن يلعبن الورق.. وعادت السيدة "**سبروت**" إلى منضدة اللعب وهي تقول حانقة:

– لقد قدموا موعد تجربة الغارة الجوية مرة ثانية.. وستتم الليلة.

وكانت السيدة "**منتون**" تقول:

– أعطني ورقتين.. إنني لا أستطيع الاعتماد على الحظ وحده.. فالورق يحتاج إلى حظ وفن.

وقالت "**توبنس**":

– ورقة واحدة.

وفجأة قالت السيدة "**كايلي**":

– عن إذنكن.. يظهر أن السيد "**كايلي**" في حاجة إليّ.. ويخيل إليّ أن كتابه سقط منه أو أنه سقط من على مقعده.. فقد سمعت شيئًا يسقط.

وبدأت المتبقيات تتفكهن بالحديث عنها وعن زوجها، ثم سكتن لحظة وأخيرًا قالت الآنسة "**منتون**":

– لم أر "**شيلا**" الليلة.. ترى أين ذهبت؟

فقالت السيدة "**سبروت**":

– لقد ذهبت إلى السينما.

وسألت "**توبنس**":

– وأين السيدة "**برينا**"؟

فأجابت الآنسة "**منتون**":

– سمعتها تقول إنها ذاهبة إلى حجرتها لمراجعة الحسابات.. لعمري ما أصعب مراجعة الحسابات!

وقالت السيدة "**سبروت**" :

– لا أظن أنها تراجع الحسابات، فقد رأيتها تمر بالردهة، وأنا أتحدث بالتليفون منذ برهة، وكانت تصعد لاهثة إلى الطابق الثاني، ورمقتني بنظرة غريبة لم أفهمها.

ودخلت السيدة "**برينا**" فاتجهن إليها بأبصارهن.. وسألتها الآنسة "**منتون**" :

– خيراً.. هل كنت تتنزهين في الخارج؟

– أبداً.. أنا لم أخرج.

– سمعت السيدة "**سبروت**" تقول إنك في طريقك إلى النزهة فاستغربت.

– خرجت لأرى حال الجو خارج الفيلا.

ودخلت السيدة "**أوروك**" بعد لحظة وقالت:

– بوكر أم بريدج؟

فنظرن جميعاً إليها وسألتها السيدة "**سبروت**" :

– ما هذا الذي أراه في يدك؟!

– إنها مطرقة.. وجدتها بجوار الدرج.. لابد أن يكون أحد قد نسيها هناك

وبعد قليل عاد "**بلتشلي**" من السينما، وأخذ ينقد الفيلم الذي رآه، ثم أحس الجميع أن الوقت قد تأخر، فانصرف كل إلى غرفته.

وفي الصباح اجتمعوا على مائدة الإفطار، وقال العقيد "**بلتشلي**" :

– إنه أمر غريب حقًّا.

– إني لا أحب الجري وراء الإشاعات أو الإساءة لسمعة أحد ولكن.. إنه السيد "**ميدوز**" .

– ماذا حدث له؟

– لم يعد إلى الفندق في الليلة الماضية.. بل إنه لم يعد حتى الآن.

فقالت "**توبنس**" في دهشة:

– ماذا تقول؟!

فأجاب العقيد وهو يرمق "توبنس" بنظرة لها مغزاها.. نظرة الرجل الذي يدرك إحساسات الأرملة الجامحة:

– يظهر أن السيد "ميدوز" حن إلى سهرات الشباب.. ومع كل فقد ضايق غيابه السيدة "برينا".

وقالت السيدة "منتون":

– من يعلم.. لعله أصيب بحادثة أثناء تجربة الغارة في الليلة الماضية.

– حادثة.. مستحيل.

ثم قال كأنما يوجه كلامه إلى السيدة "بلنكنسوب":

– إنها الطبيعة البشرية.. التي تدفع الكهول دائماً، إلى التغيب عن منازلهم.

– لست أرى السيد "ميدوز" من ذلك النوع من الرجال.. وفي ظني أن حادثًا وقع له.

فقال العقيد:

– إنه لو صدم مثلا بسيارة أو بشيء من هذا القبيل لعلمنا ذلك.

– لعلهم نقلوه إلى أحد المستشفيات؟

ولم تحتمل "توبنس" الحديث أكثر من ذلك فانسحبت من الغرفة، وابتسم العقيد قائلا:

– مسكينة الأرملة التي تجري وراء كهل لا يهتم بها.. صدق "ديكنز" إذ قال: «احترس من الكهول.. العُزَّاب.. فلا رجاء فيهم».

والواقع أن "توبنس" أقلقها غياب "تومي" غير المتوقع، ولكنها حاولت أن تطمئن نفسها بأنه قد يكون قد عثر على أثر مهم، وأخذ يتتبعه، دون أن يجد فرصة للاتصال بها.. وكان كلاهما يقدر صعوبة اتصال أحدهما بالآخر.. ويقدر احتمال غياب أحدهما المفاجئ.. فاتفقا على وسائل للتفاهم في مثل هذه الحالات.. ثم إن غياب السيدة "برينا" خارج الفيلا في الليلة الماضية– كما قالت السيدة "سبروت"– وعلى الرغم من أنها أنكرته، يحوي معانٍ كثيرة..

لعل "**تومي**" أحس بأحدها، فتتبعها ليكتشف المهمة الخفية التي خرجت من أجلها، ولكن كان عليه أن يتصل بها بالوسائل المتفق عليها، أو يسرع في العودة.

ولكن اليوم مر طبيعيًا.. ولم يسمع عن السيد "**ميدوز**" أي خبر. وفي المساء وبعد إلحاح جميع النزلاء.. قبلت السيدة "**برينا**" أن تتصل بالبوليس، فحضر أحد الكونستبلات وسأل عن المعلومات التي يعرفها النزلاء عن زميلهم الغائب، ودونها في مفكرته، وقام بعمل تحريات عرف منها أن السيد "**ميدوز**" بارح منزل الكوماندور "**هايدوك**" في العاشرة والنصف مساء، ومن هناك سار مع السيد "**وولترز**" والدكتور "**كيرتز**" حتى أبواب "**سان سوسي**" ثم ودعهما، ودخل حديقة الفيلا.. ومنذ تلك اللحظة لم يظهر السيد "**ميدوز**" ورأت "**توبنس**" خلال هذه المعلومات أن هناك احتمالين، الأول: أن يكون قد رأى السيدة "**برينا**" خارجة في تلك الساعة المتأخرة فتبعها، حتى رآها تقابل شخصًا غريبًا، فتبع هذا الأخير.. وتركها هي لأنه رآها تعود إلى "**سان سوسي**"، وفي هذه الحالة يرجح أن يكون على قيد الحياة.. وأن تحريات البوليس ستربك أعماله. أما الاحتمال الثاني: فقد صورته لها الحالة الغريبة التي كانت عليها السيدة "**برينا**" من ناحية، ثم دخول السيدة "**أوروك**" وفي يدها تلك المطرقة الثقيلة.. التي لم تجد تعليلا مقبولا للعثور عليها في تلك الساعة من الليل.. ثم إن تحديد الوقت كان مستحيلا؛ لأن واحدة من اللاتي كن يلعبن الورق، لم تهتم به ساعتئذ، كما أن السيدة "**برينا**" أنكرت أنها خرجت، إلا لترى حال الجو خارج الفيلا! ثم تلك الملاحظة التي أبدتها السيدة "**سبروت**".. من أنها رأتها تجري لاهثة.. وتصعد إلى الطابق الثاني من الفيلا.. وقد حاولت "**توبنس**" أن تتأكد من الساعة التي حدث فيها كل هذا من الأخريات، ولكنهن لم يجبن بما يشفي الغليل.

ثم إن هناك احتمالات أخرى.. فقد كان هناك ثلاثة آخرون من سكان "**سان سوسي**" في الخارج، في الوقت الذي عاد "**تومي**" فيه، فالعقيد "**بلتشلي**" كان

في السينما وحيداً، والطريقة التي اتبعها في حكاية قصة الفيلم كله قد تفسر على أنه كان يعد لنفسه مخرجاً، فيما لو وضع في موقف الاتهام.. ثم هناك السيد "كايلي" الذي دار حول الحديقة دون سبب معقول في ذلك الوقت بالذات ولأول مرة منذ سكن "سان سوسي". والسيدة "أوروك" نفسها، والمطرقة الضخمة التي كانت تلوح بها في يدها دون مناسبة ما.

*****

– أيتها الجميلة.. ما لي أراك اليوم على غير ما عهدت.. إنه انشغال البال ما من شك في ذلك.. ترى ماذا يشغل بالك..؟

فابتسمت "ديبورا برسفورد" لمحدثها الشاب "توني مارسدون"، فقد كانت الفتاة تميل إليه؛ لذكائه المفرط إذ اعتبره الرؤساء أبرع من عمل في إدارة الشفرة، وكانت "ديبورا" في نفس الوقت تحب عملها الذي يجبرها على تركيز تفكيرها فيه.. وعلى الرغم من أنه عمل متعب إلا أنه لذيذ تشعر من تشغله بأنها ذات أهمية، وليست كتلك الممرضات اللاتي يتسكعن في ردهات المستشفيات ينتظرن حالة جديدة من وقت إلى آخر.. وعاد "توني مارسدون" يسألها:

– ما الذي تفكرين فيه.. أيتها الجميلة..؟

– لا شيء.. إنها مسائل عائلية لا أكثر.

– إن العائلات مرهقة دائماً.. هل لي أن أستفسر؟

– ليس في المسألة سر.. إن والدتي.. أراني قلقة عليها.

– لماذا؟ أمريضة هي؟

– أبداً.. كانت قد أرسلت لي خطاباً بأنها ذهبت لتقيم مع عمة مسنة لي في "كورنوال" لتساعدها وتمرضها، وقد كنت في غاية الاطمئنان عندما وصلني منها خطاب منذ يومين.

– إذن ماذا غير الأحوال؟

– المسألة أنني كلفت زميلنا "شارل" – وكان قد سمح له بإجازة لزيارة أهله

في "**كـورنوال**" - أن يمر بمنزل العـمـة ويزورهـم.. وقـد ذهـب ولـكنه لـم يجـد والدتي هناك.

- لم يجدها هناك؟!

- نعم.. بل لم تذهب إلى هناك إطلاقًا.

- أمر غريب حقًّا.. وأين.. أعني والدك؟!

- أبي؟ إنه التحق بعمل في "**اسكتلندا**".. من تلك الأعمال الكتابية.. الملفات والأوراق وما شابه ذلك.

- ربما ذهبت والدتك لتلحق به هناك.

- لا يمكن.. فإنه يعمل في إحدى تلك المناطق التي يمتنع دخول الزوجات فيها.

- إذن لابد أن تكون قد ذهبت إلى مكان ما.

- نعم.. ولكن إن كل خطاباتها تتحدث عن العمة المسنة والحديقة.. و..

- نعم.. نعم.. لا شك في أنها كانت تريدك أن تعتقدي أنها هناك.. بينما.. أعني...

- لا.. لا.. مستحيل.. إذا كنت تعتقد أن أمي من أولئك النساء اللاتي لا يجدن غضاضة في الاتصال برجل آخر، فأنت مخطئ.. مستحيل أن يحدث هذا.

- آسف جداً، فلم أكن أعني ذلك.

- الغريب في الموضوع أن شخصًا ما قال لي أمس إنه رآهما في "**ليهامتن**" أخيراً.. ولكن خطاباتها من "**كورنوال**".. إنني لا أستطيع أن أفهم.

وتوقف "**توني**" عن إشعال سيجارته وترك عود الثقاب يحترق دون أن يهتم به، وصاح في دهشة:

- "**ليهامتن**"..!

- نعم.. إنه آخر مكان يفكر فيه الإنسان.. ضباط متقاعدون.. وأرامل يستشفون. ورمى الشاب بعود الثقاب الذي كاد يحرق أصابعه، ثم عاد فأشعل

عوداً آخر وسألها :

– ماذا كانت والدتك تعمل في الحرب الماضية؟

– كانت تعمل أحيانًا في التمريض.. وأحيانًا أخرى تقود سيارة أحد الجنرالات على ما أظن.

– ظننت أنها كانت – مثلما أنت الآن – في إدارة المخابرات.

– مخابرات؟ أظن أنها قامت في وقت من الأوقات بنقل بعض الأوراق المهمة، فاعتبرت ذلك عملا جباراً.. وبالغت في أهميته.

وفي اليوم التالي، عندما عادت "**ديبورا**" إلى غرفتها، لاحظت أن حالة الغرفة تنبئ بأن أشخاصاً عبثوا بها، فنادت صاحبة المنزل، وسألتها خاصة عن الصورة الكبيرة، التي كانت تحلي بها منضدة الزينة، ولكن السيدة قالت إنها لم ترها وأظهرت أسفها وقالت، إن الخادمة ربما تعلم شيئًا عما حدث، ولما سئلت الخادمة أنكرت معرفتها لأي شيء وقالت ربما كان الرجل الذي أتى ليصلح صنابير الغاز هو الذي عبث بالغرفة، ولكن "**ديبورا**" لم تتصور أن موظفاً بشركة الغاز يهتم بصورة سيدة في منتصف العمر، وشكت "**ديبورا**" في أن تكون الخادمة، قد كسرت إطار الصورة وخوفًا من المتاعب أخفتها نهائيًا ولم تحب "**ديبورا**" أن تثير مشاكل جديدة، ففي وسعها بلا شك أن تطلب إلى أمها إرسال صورة أخرى. ومع ذلك فإنها كانت قلقة على أمها، وخاصة بعدما أشار صديقها "**توني**" إلى احتمال اتصالها بشخص ما.

- 11 -

كان الدور على "**توبنس**" لمقابلة ذلك البحار المسن، الذي يصيد السمك بسنارته، وكانت ترجو أن يكون السيد "**جرانت**" على علم بأسباب غياب زوجها ولكن أملها انهار تمامًا، فقد علمت منه أن أخبار "**تومي**" انقطعت عنه منذ وقت طويل، فقالت "**توبنس**" وهي تبذل جهداً كبيراً، لتجعل نغمات

صوتها تبدو عملية:

– لا أظن أن هناك من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أنه أصيب بمكروه.

– كلا.. لا أظن.. ولكن لنفرض جدلا أنه أصيب.. ماذا عنك أنت؟

– أنا؟ سأستمر طبعًا.

– هذا ما أريد أن أسمعه، ولديك وقت طويل، بعد الانتصار في المعركة تبكين فيه.. أما الآن فنحن في إبانها، والوقت قصير، ثم لا تنسي أن نبأ صغيراً، أبلغتماه إلينا ثبت أنه صحيح.. فإن كلمة «الرابع» عرف أنها ترمز إلى اليوم الرابع من الشهر القادم، وهو اليوم الذي حدده العدو لغزو هذه البلاد..

– أمتأكد أنت؟

– نعم، إن اليوم الرابع هو يوم الغزو، أما هذه الغارات المتتالية فما هي إلا اختبار لاستحكاماتنا ومقدرتنا على المقاومة.

ولكن ما دمتم تعلمون هذا كله..

– إننا نعلم أن يوم الغزو قد تحدد.. كما نعلم على وجه التقريب في أي مكان سيقع.. ونحن على أتم استعداد لهم.. ولكن ما يقض مضاجعنا هو القصة القديمة، قصة حصان "طروادة"، والرجال الذين يعيشون في جوفه، فهؤلاء هم الخطر الأكبر؛ إذ إنهم يعرفون ما نعرف من أسرار الدولة الحربية، وهم الذين يستطيعون تسليم العدو مفاتيح القلعة.. ويكفي أن عشرة منهم يوزعون في مراكز مهمة، لتحطيم كل تنظيماتنا وكشفها للألمان، ومن ثم ترين أن ما نحتاج إليه هو الكشف عنهم.

– ما أقسى إحساسي بعجزي وعدم خبرتي!

– لا عليك.. فلدينا كثير من الخبراء يعملون ما وسعهم العمل، ولكن الخونة الذين يندسون وسطهم يجعلوننا لا ندري بمن نثق وبمن لا نثق.

– ألا تستطيعون تعيين بعضهم لمراقبة السيدة "برينا"؟

– لقد قمنا بذلك فعلا، وعلمنا أن لها نزعة نازية، ولكن لم نصل بعد إلى ما يثبت إدانتها، فأرجو أن تستمري في عملك بأقصى ما تستطيعين من حذق

وحيطة.

ـ يبقى نحو أسبوع على ذلك الموعد.. أعني اليوم الرابع. نعم.. أسبوع بالضبط.

ـ إذن لابد لنا من عمل شيء ما.. وأعني أنا و"تومي".. فإني ما زلت أعتقد أنه وراء أثر ما.. ولعمري كم أود لو أستطيع أن.. وقررت في نفسها خطة جديدة للهجوم..

ـ والآن يا "**ألبرت**" يجب أن أغير من الوسائل التي اتبعتها حتى الآن.

ـ ولكن يا سيدتي.. إن العدو لم يعرفك حتى الآن.. ويكفي أنه اكتشف السيد "**برسفورد**" فيما أظن.

ـ لم يبق أمامنا وقت نضيعه. وسأحاول أن أكشف نفسي، وعليك أنت أن تراقبني، وترى ماذا تستطيع أن تفعل حيال العدو في اللحظة التي يضع فيها يده عليّ.

ـ لا أفهم ما تعنين.

ـ سأكتب خطاباً وأدعي أنه فقد مني، وأقيم الدنيا وأقعدها عن أهميته ثم أترك الفرصة للخادمة كي تجده وتضعه في مكان ظاهر. وأول من يتقدم إليه يكون هو "ن" أو "م"، وأعتقد أنه سيعمل فوراً على إزاحتي من الطريق، وعليك أن تكون يقظاً لكل ما يحدث. وأبلغ أولي الأمر في اللحظة المناسبة فيقبضون عليه في حالة التلبس.

ـ بالضبط.. وعليك أن تفكري في هذا حتى صباح الغد، وتقابليني لنتفق على الخطوات الأخيرة.

*****

خرجت "**توبنس**" من المكتبة، بعد أن اشترت كتاباً وصفوه لها بأنه كتاب شائق. وإذا بها تسمع صوتاً خلفها يقول:

ـ السيدة "**برسفورد**".

التفتت في ذعر.. فوجدت شاباً أسمر اللون طويل القامة، علت شفتيه ابتسامة.. قال لها:

– أعتقد أنك لا تعرفينني.. أو على الأقل لا تذكرينني.. لقد زرتكم في أحد الأيام الماضية مع "ديبورا".

– إذن أنت أحد أصدقاء "ديبورا"، وما أكثرهم.

– إنني "توني مارسدون".. وأعمل في نفس المكتب الذي تعمل فيه "ديبورا" وقد حدث أمر مؤسف.

– ما هو؟

– اكتشفت "ديبورا" أنك لست في "كورنوال" كما كانت تعتقد.. وهذا أمر مؤسف حقًّا بالنسبة إليك يا سيدتي على الأقل.

– كيف؟ ماذا خمنت يا ترى؟!

– إن "ديبورا" في الواقع لا تدري ماذا تفعلين الآن.. ويخيل إليّ أنه من اللازم ألا تعلم. وإني أقوم بعمل مشابه، إذ عليّ أن أتحرى عن الأشخاص الذين يميلون للنظام النازي، وهم كثر.

– إن الخيانة في كل مكان.

– عندما حدثتني "ديبورا" عن عدم وجودك في "كورنوال" عملت على الحضور فوراً، لتقومي من ناحيتك، بترتيب الأمور لتغطية الموقف، خاصة وقد عرفت بعض الشيء عن النشاط الذي تقومين به، وإلى أي حد هو حيوي، ولعمري.. إذا عرفت ما أنت قائمة به من نشاط.. فإن في ذلك خطراً محققاً، وقد فكرت أن تدعي أنك اتصلت بالكابتن "برسفورد" في "اسكتلندا".. أو في أي مكان آخر يكون فيه، ويمكنك أن تقولي، إنه سمح لك بالعمل معه.

– ربما فعلت ذلك.

– أرجو ألا يضايقك تدخلي فيما لا يعنيني.

– بالعكس إني أشكرك.

– إني كما ترين.. أميل إلى "ديبورا".

فرمقت "**توبنس**" الفتى بنظرة وفكرت في اهتمام الشبان بابنتها "**ديبورا**" علي الرغم من خشونة معاملتها لهم.. وتصورت أن هذا الشاب لابد أن يكون واحداً منهم.. ثم عادت وقالت للشاب:

– إن زوجي ليس في "**اسكتلندا**".

– هكذا!

– نعم.. كان هنا معي، ولكنه اختفى فجأة.

– هذا أمر يؤسف له حقًا.. هل كان وراء أثر ما..؟

– نعم.. ولست أظن أن في غيابه هذا ما يخشى منه.. كما أظن أنه سيتصل بي بوسائلنا الخاصة. إن عاجلا أو آجلا.

– طبعًا، ولا شك في أنك تدركين خطورة المهمة.. ويجب أن تكوني على حذر.

– لا شك في ذلك.. وإني أفهم ما تعني.

- 12 -

بدأ "**تومي**" يحس كأنما كرة نارية تسبح في عينيه، بعد أن كان قد فقد الوعي مدة لم يستطع حسبانها، وتجمع الألم مجسمًا في مركز تلك الكرة، وأخذت تسبح ببطء، ثم أحس فجأة، أن نواة ذلك الألم، هو رأسه المحطم.

وأخذ يستفيق شيئًا فشيئًا ويعي بعض ما هو فيه، أدرك أن أطرافه قد تثلجت وأنه جائع، وأنه غير قادر على تحريك شفتيه.

إن رأسه ملقى على أرض.. أرض جامدة.. أقرب الأشياء إلى صخر صلد، وبدأت ذاكرته تعود إليه شيئًا فشيئًا.. فتذكر "**هايدوك**"، وجهاز اللاسلكي.. والساقي الألماني ودخوله من أبواب "**سان سوسي**".. ثم ما حدث بعد ذلك.

وعاد يقول لنفسه.. "**هايدوك**".. لقد عاد "**هايدوك**" إلى «**استراحة المهربين**» أمامي وأغلق الباب خلفه.. ترى كيف رتب الأمور بحيث يسبقه إلى

"سان سوسي" ، وينتظره هناك..؟ إن ذلك أمر مستحيل.. فلم يره في الطريق.. إذن.. لابد أن يكون الساقي.. ولكن لا.. لقد رآه ينظم المائدة استعداداً لإفطار سيده في صباح اليوم التالي.. وعلى كل.. فإن ذلك لا أهمية له.. إنما المهم أن يعلم أين هو الآن؟.. كانت عيناه قد اعتادتا الظلام فرأى بصيصاً من نور ينبعث من نافذة صغيرة في أعلى المكان الذي كان فيه، وأدرك أنه ملقى في قبو وأن يديه قد قيدتا وكذلك رجليه، وأنه قد كمم بإحكام بحيث لا يسمع له صوت.. وقد بدأ يحاول تحريك أطرافه دون جدوى.. وبعد لحظات سمع صوت باب يفتح، في مكان ما خلفه.. ودخل رجل يحمل شمعة ثبتها على الأرض، ثم خرج وعاد من جديد يحمل في يده (صينية) عليها دورق به ماء وكوب وبعض الخبز والجبن.. وقد عرف "تومي" أنه "آبل دور" الذي أخذ يتحسس الأربطة والكمامة، ثم قال:

– سأنزع عنك هذه الكمامة لتأكل، وإذا بدر منك أي صوت، سأعيد ربطها من جديد.

فحاول "تومي" أن يهز رأسه إيجاباً، ولكنه لم يستطع إلا أن يفتح جفنيه ويقفلهما علامة على رضاه.. فأخذ "آبل دور" ينزع عنه الكمامة ببطء واستطاع "تومي" بعد عدة دقائق أن يحرك فكيه وفمه، فأمسك "آبل دور" بالكوب وقربه من شفتيه، فجرع قليلا بصعوبة في أول الأمر، ثم استطاع أن يزدرد الماء ازدراداً، فأحس أن حالته أصبحت خيراً مما كانت.

ثم أمسك الرجل بقطعتي الخبز والجبن ورفعهما إلى فم "تومي" ، واستمرت العملية بعض الوقت.. وشرب "تومي" أغلب ما كان في الدورق من الماء، ثم سأل الرجل:

– وما القسم الثاني من برنامجكم؟

ولم يجب "آبل دور" ، ولكنه مد يده إلى الكمامة.. فأسرع "تومي" قائلا:

– أريد أن أقابل الكوماندور "هايدوك".

فهز "آبل دور" رأسه علامة عدم الموافقة، وأعاد ربط الكمامة، وهكذا ترك

"تومي" في ظلام دامس، فنام..

واستيقظ على صوت الباب يفتح من جديد، ودخل في هذه المرة "هايدوك" و"آبل دور" معًا، وأزيلت الكمامة والأربطة.. وكان "هايدوك" ممسكًا بمسدس أتوماتيكي في يده.

ولم يكن "تومي" مطمئنًا إلى نجاح الخطة التي صمم عليها، ولكنه قال:

– لست أفهم معنى لكل هذا يا "هايدوك".. فقد اختطفت بدون أي مبرر.

– لا تقلق بالك.. المسألة أهون مما تظن.

– هل لمجرد كونك عضواً في إدارة المخابرات تظن نفسك تستطيع أن تفعل ما يحلو لك؟

– لا.. لا.. يا "ميدوز".. فأنت لم تقتنع بقصتي كما رأيت.. ولا حاجة لنا للاستمرار في هذه المهزلة.

ولكن "تومي" لم يظهر أية بادرة تبين فهمه لما يقول الكوماندور، وتمنى في أعماق نفسه أن يكون إصراره على التغابي، وسيلة تخرجه من المأزق الذي وقع فيه فقال:

– من تظن نفسك، بحق السماء، مهما كنت ومهما كانت القوات التي تخضع لك فإنه لا حق لك أن تعاملني هذه المعاملة.

فقال الآخر ببرود:

– إنك تمثل دورك تمثيلا بارعًا.. وليس يهمني إذا كنت من العاملين في إدارة المخابرات البريطانية، أو أنك هاوٍ مفتون.

– لا أدري عما تتحدث.

– كفى يا "ميدوز".. كفى أيها اللعين.. لم يبق لدي من الوقت ما يسمح لي بأن أعلم من أنت ومن أرسلك، وليس يهمني هذا الآن.. فالوقت ضيق، ولن أترك لك الفرصة لتبلغ من تريد تبليغه، ما رأيت..

– لابد أن البوليس يبحث عني.. منذ تغيبت.

– لقد حضر رجلان من رجال البوليس، في أول ليلة اختفيت فيها.. إلى

هنا.. وكلاهما كان صديقًا لي.. وقد سألاني كل ما أعلم عن السيد "ميدوز".. فأظهرت عجبي لاختفائه، وأعتقد أن أحداً منهما، لا يتطرق إلى ذهنه، أن الرجل الذي يبحث عنه صريع تحت أقدامه، ولا شك في أنك لم تنس خروجك من هذا المنزل سليماً معافى، ولا أظن أن هناك عقلية في العالم تشك في وجودك عندي.

- إنك لا تستطيع أن تبقيني هنا إلى الأبد.

- لن أحتاج إلى ذلك.. وقد أبقيك إلى مساء الغد.. وهناك قارب صغير ينتظرك ببابي لتقوم فيه برحلة تسترد فيها صحتك.. إلى الأبد.

- إني أعجب، لِمَ لَمْ تصرعني في تلك الليلة؟

- إن الجثث تفوح رائحتها في مثل هذا المكان يا عزيزي، ولذلك أجلنا ذلك إلى حين وصول الزورق.

وفهم "تومي" أنه على حق في ذلك، فعندما يصل الزورق، يستطيعون قتله ونقل جثته ليقذفوا بها في اليم بعيداً عن «استراحة المهربين».

وقال "هايدوك" في برود:

- لقد أتيت لأسألك.. عما إذا كانت لك رغبة تود أن نحققها لك، فيما بعد، إذا أردت أن تبعث برسالة إلى.. صديق لك.. فثق بأننا على استعداد لإسداء هذه الخدمة..

وفهم "تومي" أن الرجل يحاول أن يستدرجه ليعرف شيئًا عمن يتصل به فأجاب:

- كلا وأشكرك.

وأشار "هايدوك" إلى "آبل دور" فقام هذا على الفور بإعادة الأربطة والكمامة وترك الرجلان القبو بعد أن أغلقا الباب خلفهما..

وأحس "تومي" بالأسى.. لا لأنه سيموت بعد ساعات، ولكن لأنه لا حيلة له في ترك أي دليل يشير إلى المعلومات التي حصل عليها، وفكر في "توبنس".. إن غيابه لابد أن يكون قد أقلقها.. ولكن لن يخطر ببالها أن تشك في

"**هايدوك**" بالذات.. بل إنه يعتقد أنها لن تشك في أحد على الإطلاق إذ ستتوقع أنه يقوم بمهمة وسيعود منها.. وأخذ يفكر في الاستغاثة ولكن فمه كان مكمماً، وفي نصف الساعة التالية حاول فك قيوده، دون جدوى.

وقدر أن الوقت قد أضحى بعد الظهر.. ولم يسمع صوتاً أو حركة فوقه، فاستنتج أن من بالدار قد رحلوا، ولعل "**هايدوك**" الآن يلعب الجولف في النادي، واستشاط "**تومي**" غضباً.. كيف أن أحداً لم يشك في هذا المخلوق ذي السحنة البروسية.. يا له من ممثل بارع!.. أما هو فقد وقع في الفخ كالهر.

- لو كانت "**توبنس**" تتنبأ وتشك.. إنها أحياناً تلهم.

ما هذا..؟ وأخذ يتسمع إلى صوت يأتي من بعيد.. صوت رجل يترنم بلحن.. ولكن ما الفائدة.. إنه لا يستطيع أن يصدر أي صوت يلفت الأنظار إليه.. واقترب الصوت.. إنه لحن مألوف لديه.

«لو كنت أنت الفتاة الوحيدة.. وكنت أنا الفتى الوحيد».

لقد غنى هذا اللحن كثيراً في عام 1917.. لعنة الله على صاحب هذا الصوت.

وفجأة تخشب جسد "**تومي**" واهتز في عنف.

إنه يعرف صاحب هذا الصوت.. وقال في نفسه.. إنه "**ألبرت**" بلا شك.. "**ألبرت**" يسير بجوار «**استراحة المهربين**».. بالقرب منه، ولكنه لا يستطيع أن ينبس بأي صوت.. كلا.. إن كل إنسان يستطيع أن يحدث أصواتاً وفمه مطبق.. فليجرب ذلك..

فأخذ يموء موءات متقطعة.. كمن يرسل إشارة لاسلكية.

كانت حالة "**ألبرت**"، بعد أن ترك "**توبنس**"، على غير ما يرام، فعجب من هؤلاء الألمان الذين يحيون "**هتلر**" مئات المرات في اليوم الواحد، ويسيرون بخطوة الأوزة.. ويدمرون بلاد العالم بقنابلهم كأنهم طاعون يفتك بالناس، عليهم اللعنة، يجب أن يوقفوا عند حد.

وهذه السيدة "**برسفورد**".. إن لها عليه أيادي بيضاء.. والسيد

"**برسفورد**" .. أين هو الآن يجب أن يجده لها.. وخرج يبحث عن سيده دون أن يرسم لنفسه خطة ما.. فسار كالكلب الأمين، يتشمم رائحة سيده، وكان قد علم أن الكابتن "**برسفورد**" قد تناول طعامه في منزل الكوماندور "**هايدوك**" في «**استراحة المهربين**»، ويقال إنه عاد بعد ذلك إلى "**سان سوسي**" .. إذن يجب عليه أن يبدأ من حيث انتهى سيده.. فوقف على أبواب "**سان سوسي**" ، عدة دقائق.. ينظر يمنة ويسرة عسى أن يجد شيئًا يلفت النظر، ولكنه لم يجد شيئًا.. فاتجه صاعداً إلى قمة التل متجهًا إلى «**استراحة المهربين**» .

سار يسلي نفسه بترديد ذلك اللحن:

«لو كنت أنت الفتاة الوحيدة.. وكنت أنا الفتى الوحيد» .

وتوقف "**ألبرت**" لحظة، متطلعًا إلى أبواب «**استراحة المهربين**» وقال في نفسه: «وهنا تناول السيد "**برسفورد**" طعامه».. ودار حول المكان من بعيد.. فرأى الأبواب تفتح، وتخرج منها سيارة، رأى فيها رجلا ضخماً يصحب معه أدوات لعب الجولف.. إذن هذا هو الكوماندور "**هايدوك**" .. وبعد لحظة رأى رجلا.. يخرج من باب الحديقة، وقد أمسك بفأس في يده.. وعاد "**ألبرت**" يترنم باللحن مقتربًا شيئًا فشيئًا من المنزل.. وهو يراقب الرجل الذي بدأ يفلح الحديقة.. وفجاة قال "**ألبرت**" لنفسه مندهشًا: ما أجمل هذا! يظهر أن الكوماندور يربي حيوانات.. ما أغرب ذلك! إن هذه لا يمكن أن تكون حيوانات.. هل هو غطيط نائم؟ ومن ينام في مثل هذا القبو.. ثم هذا الغطيط المنظم.. إنه.. إنه يذكره بشيء.. طال به العهد.. ما هو؟.. إنه قريب الشبه بالشفرة.. شفرة الاستغاثة.. وعاد يتسمع من جديد.. ثم تلفت حوله يمنة ويسرة، وركع على ركبتيه، ونقر على شباك القبو، عدة نقرات وكأنه يجيب تلك الإشارة.

- 13 -

لم تكن "**توبنس**" في حالة طبيعية، عندما ذهبت إلى فراشها في المساء، ولما أصبح اليوم التالي ووجدت رسالة لها تغيرت حالتها ففضت الرسالة، وقرأت فيها:

«عزيزتي "**باتريشيا**":

العمة "**جراسيا**" في حالة خطيرة اليوم.. وقد قرر الأطباء أنها قاربت النهاية، إذا أحببت أن تريها يجب أن تحضري اليوم. إذا ركبت القطار الذي يتحرك في العاشرة والثلث إلى محطة "**يارو**" ستجدين صديقًا معه سيارة.. وكان بودي أن أكتب لك في ظرف أحسن من هذا».

"**بنلوب بلين**"

قرأت "**توبنس**" الخطاب، ثم ظهرت على محياها علامات الأسى، وكانت السيدة "**أوروك**" والسيدة "**منتون**" موجودتين فأخذن جميعًا يتحدثن عن أمراض أقاربهن، وبعد أن تناولن طعام الإفطار، قامت "**توبنس**" إلى التليفون.. وألغت موعدها مع حائكة الثياب.. وقابلت السيدة "**برينا**" وشرحت لها الموقف قائلة:

– إنها سوف تغيب عن المنزل ليلة أو اثنتين.

فقابلت السيدة "**برينا**" الخبر بعبارات المواساة المعتادة في مثل هذه الظروف، وقالت:

– لم تأت حتى الآن يا سيدة "**بلنكنسوب**" أية أخبار عن السيد "**ميدوز**"، وهذا أمر في غاية الغرابة.

فقالت "**توبنس**":

– لابد أن يكون قد أصيب في حادثة و...

– ولكن يا سيدة "**بلنكنسوب**".. لو كان الأمر كذلك لسمعنا به.. فقد مضى وقت طويل.

- إذن بماذا تفسرين سبب غيابه؟

- لعمري، لست أدري ما أقول.. وإني أوافق تمام الموافقة على أنه لم يختف بمحض إرادته. وإلا لكان أنبأنا على الأقل.

- ربما يكون قد فقد ذاكرته فجأة، فهذا أمر كثير الحدوث في هذه الأيام.

- ربما.. وعلى وجه العموم يا سيدة "**بلنكنسوب**" نحن لا نعلم كثيراً عن حقيقة السيد "**ميدوز**".. أليس كذلك؟

- ماذا تعنين؟

- في الواقع لا أصدق كل ما أسمع.. ولكن.

- تصدقين ماذا؟

- تلك القصة التي يرددونها.

- أية قصة؟ إنني لم أسمع شيئًا.

- طبعًا.. إنهم لن يقولوا لك شيئًا.. أنت بالذات.. وقد سمعتها لأول مرة من السيد "**كايلي**".. وهو كما تعلمين رجل كثير الشكوك.

- أرجوك أن تخبريني بما تعلمين.

- حسن.. إنه مجرد افتراض.. إنهم يقولون إن السيد "**ميدوز**" من عملاء الأعداء، أو بعبارة أخرى، من رجال الطابور الخامس.

- لم أسمع هذا الهراء قبل الآن.

- ربما لا يكون صحيحًا.. ولكن، لقد رؤي كثيراً مع ذلك الشاب الألماني.. وأظنه كان كثير التساؤل عن تقدم العمل في المصنع الكيميائي.. فاستنتج الناس أنهما كانا مشتركين في العمل لحساب العدو.

- أظن أنك أنت شخصيًا يا سيدة "**برينا**" لا تشكين في "**كارل**".

- أتمنى ألا يكون ما يقال صحيحًا.

- وعلى الخصوص، إن "**شيلا**" المسكينة انفطر قلبها حزنًا.. ولست أدري لماذا شاءت ظروفها أن تحب ذلك الفتى.

- إن الأمور دائمًا تسير على غير ما نهوى.

– أنت على حق في ذلك.. هكذا الدنيا.. أحزان وآلام.. وفجأة سمعتا صوت السيدة "**أوروك**" تقول:

– هل قطعت عليكما الحديث؟!

فقالت السيدة "**برينا**":

– لا.. أبداً.. فقد كنا نتحدث عن غياب السيد "**ميدوز**".. وكيف أن البوليس لم يعثر له على أثر.. لا شك في أنك سمعت القصة.

فقالت السيدة "**أوروك**":

– البوليس.. ماذا يمكننا أن ننتظر من ورائه.. إنه لا يصلح إلا لمخالفة السيارات وتحرير المحاضر لأصحاب الكلاب غير المرخص بها.

فسألتها "**توبنس**" عن رأيها في غياب السيد "**ميدوز**"، فأجابت:

– لا شك في أنك سمعت القصة.

– قصة.. إنه فاشستي وإنه من رجال الأعداء.. هذا هراء.

– بلى، ربما كان ذلك صحيحاً.. فقد كنت أراقبه من أول الأمر، وأحسست أنه ليس رجل أعمال متقاعد كما يدعي، بل أدركت أنه أتى إلى هذا المكان لحاجة في نفسه.

فقالت "**توبنس**":

– وعندما أحس بأن البوليس وراءه اختفى.. أليس كذلك..؟

– ربما كان الأمر كذلك.. وإلا فما رأيك أنت يا سيدة "**برينا**"؟

– لا أدري.

فسألتها "**توبنس**":

– لم تقولي لنا أنت ما رأيك يا سيدة "**أوروك**".

– إني أعتقد أن الرجل بمأمن من الخطر.

وصعدت "**توبنس**" إلى غرفتها لتعد حقائبها فجرت نحوها "**بتي**" الصغيرة خارجة من غرفة آل "**كايلي**" وهي تصيح:

– بطتي.. بطتي.

فردت عليها "**توبنس**" قائلة:

- أهي فوق؟

فأجابت "**بتي**":

- تحت.

وظهرت السيدة "**سبروت**" في تلك اللحظة، فأخذت الطفلة تصيح:

- أخفيني.. أخفيني.

فقالت السيدة "**سبروت**":

- إنك لا تستطيعين أن تقومي بلعبة «الإخفاء» الآن.

*****

عندما دخلت "**توبنس**" غرفتها، لاحظت أن يداً عبثت بقبعاتها، فتلفتت حولها في الحجرة، فتأكدت أن العبث كان في كل مكان. إنهم يبحثون عن شيء لن يجدوه، وتركت الخطاب الذي وصلها صباح اليوم، على منضدة الزينة، ثم خرجت من المنزل ونظرت في ساعتها.. كانت العاشرة، وقالت لنفسها: لايزال هناك متسع من الوقت ولابد من النجاح.

*****

نزلت "**توبنس**" في محطة "**يارو**" فوجدت سيارة تنتظرها يقودها شاب قال لها:

- تفضلي يا سيدتي.

وبعد أن سارت السيارة مسافة قصيرة وسط الأحراش توقفت ونزلت "**توبنس**" فوجدت "**توني مارسدون**" في انتظارها فقال لها على الفور:

- إن "**برسفورد**" بخير.. وقد خلصناه من الأعداء.. إذ كان قد وقع أسيراً في يدهم، ولا يمكن أن ترينه في الوقت الحاضر، لأسباب خارجة عن إرادتنا.. ثم إن هناك مهمة يجب إنهاؤها.

ونظرت "**توبنس**" إلى كومة من القماش ملقاة بعيداً فسألت:

- ما هذا؟

- إنه أمر في غاية الخطورة.. إنه بقايا (باراشوت) نزلت به فتاة قبض عليها رجالنا وكانت ترتدي ثياب الممرضات.. وعرفنا أنها مكلفة بمهمة سرية.

- ثم ماذا؟

- إذا أحببت فإنك تستطيعين أن تحلي محلها، وتقومي بدورها لتكتشفي كنه مهمتها.

- إنني على استعداد.

- ما أقوى أعصابك يا سيدة "**برسفورد**"!

- ماذا عليّ أن أفعل؟

- إن التعليمات التي معها ليست واضحة.. ولكننا وجدنا ورقة مكتوبة بالألمانية في جيب الفتاة.. جاء فيها.. "**دوسبري**" إلى "**ليبزريارو**" حتى تقاطع الطريق.. ثم شارع "**آسال**" رقم 14.. الدكتور "**بينيون**".

ونظرت "**توبنس**" إلى حيث أشار "**مارسدون**"، فرأت تقاطع الطريق.. وقال الشاب:

- هناك.. ستسيرين في ذلك الطريق، نحو 8 كم على الأقل.

إن السير على الأقدام رياضة جميلة، وأرجو أن يقدم لي الدكتور "**بينيون**" طعام الغداء.

- هل تتكلمين الألمانية يا سيدة "**برسفورد**"؟

- بضع جمل فقط.. لكنني سأصر أن يكون الحديث بالإنجليزية، وأقول إن تعليماتي تقرر ذلك.

- إنك تخاطرين.

- هراء! من يتخيل أنني بديلة لتلك التي هبطت بالبراشوت؟

- لقد حسبنا حساب كل ما قد ينتظر، فحجزنا الرجلين اللذين قبضا على

الممرضة الألمانية على الرغم من أنهما من رجالنا، زيادة في الحيطة والآن سنبدأ في عملية التنكر.

وبعد نصف ساعة ظهرت "توبنس"، وقد تغير شكلها، وتقدمت بها السن عشر سنوات واعرض فكاها؛ نتيجة لقطع المطاط التي وضعت داخل فمها لتتخذ هيئة الممرضة الألمانية فقال "توني مارسدون":

– ستعلمين منه بالتحديد أين ومتى وكيف سيقع الغزو؟

– لا تخش عليّ يا طفلي العزيز.

وقفت "توبنس" أمام المنزل رقم 14 شارع "آسال"، فلاحظت من لوحة الدكتور "بينيون" أنه طبيب أسنان، كما لاحظت من طرف عينيها أن "توني مارسدون" كان يراقبها من بعيد في سيارته، فأدركت أن سيرها على الأقدام كانت له حكمة.. فإن طائرة كانت تتبعها طوال سيرها، وفهمت أن العدو كان حريصًا على عدم ركوبها في سيارة حتى لا تحدث أي متاعب كانت.

صعدت "توبنس" درجات المنزل حتى وجدت باب العيادة.. فضغطت الجرس وظهر وراء الباب وجه سيدة إنجليزية عجوز..

– هل الدكتور "بينيون" موجود؟

– هل أنت الممرضة "إيلتون"؟

– نعم.

– إذن.. اتبعيني.

ودخلت "توبنس".. فقالت السيدة المسنة بعد أن أغلقت الباب:

– أرجو أن تنتظري.. ريثما أخبر الدكتور.

وانتظرت "توبنس" أن يفتح الباب ويظهر لها الدكتور "بينيون".. ترى من يكون.. هل هو شخص غريب عنها؟ أو شخص سبق أن رأته؟ وماذا يحدث لو كان الدكتور "بينيون" هو الشخص الذي تفكر فيه؟

وفتح الباب.. وخرج منه رجل لم يخطر على بال "توبنس" مطلقًا.

الكوماندور "هايدوك"!

- 14 -

تمالكت "**توبنس**" أعصابها، وتناست إلى حين.. الدور الذي استنتجت أن الكوماندور "**هايدوك**" قد لعبه في اختفاء "**تومي**"- وكان لابد لها أن تتمالك أعصابها- فعليها أن تعمل المستحيل حتى لا يكتشف دورها.. وقفت على قدميها.. كأي امرأة ألمانية تواجه رئيسها..

- إذن حضرت.

- نعم.. إنني الممرضة "**إيلتون**".

وابتسم "**هايدوك**" كما لو قد سمع دعابة وقال:

- عظيم.. عظيم.. أيتها الممرضة "**إيلتون**".. تفضلي بالجلوس.

- أعتقد أنه عليّ أن أتلقى منك تعليمات.

- أتعلمين اليوم؟

- إنه الرابع.

- إذن أنت تعلمين ذلك.. وعقد ما بين حاجبيه.

فقالت "**توبنس**" بعد فترة سكون.

- أرجو أن تحدثني عما يجب عليّ أن أفعله.

- كل شيء في أوانه يا عزيزتي.. ثم قال بعد لحظة:

- قد سمعت بلا شك عن "**سان سوسي**"؟

- لا.

- ألم تسمعي عنها؟

- كلا.

فابتسم الكوماندور، ابتسامة غريبة.

- إذن أنت لم تسمعي عن "**سان سوسي**"! إن هذا ليدهشني كثيراً، فإني أعلم أنك كنت تقيمين هناك طوال الشهر الماضي أليس كذلك يا سيدة "**بلنكنسوب**"؟

– إني لا أفهم ما تعني يا دكتور "**بينيون**".. لقد هبطت بالبراشوت صباح اليوم.

– آه.. إنني لست الدكتور "**بينيون**" يا عزيزتي.. الدكتور "**بينيون**" هو طبيبي وقد سمح لي باستعارة عيادته بعض الوقت.

– حقًا؟!!

– حقًا يا سيدة "**بلنكنسوب**".. أو لعلك تفضلين أن أخاطبك باسمك الحقيقي يا سيدة "**برسفورد**".. لقد انكشفت اللعبة أخيراً.. وقال العنكبوت للذبابة.. «هأنت قد وقعت في خيوطي» وأحب أن أنبهك إلى نصيحة مهمة.. هي ألا تصيحي فتزعجي الجيران.. فستقتلين قبل أن تفتحي فاك.. ثم لا تنسي أن هذه عيادة طبيب أسنان، وكثيراً ما سمع الجيران أصوات المرضى.

يخيل إليّ أنك فكرت في كل شيء.. لكن هلا حسبت حساب أن لي أصدقاء بالخارج يعرفون أين أنا؟

– أوه.. هل تفكرين في الشاب "**توني مارسدون**".. يؤسفني يا سيدة "**برسفورد**" أن أصارحك بأن "**توني**" من أنشط الشباب الذين يعملون تحت إمرتنا، وقد استطاع بلباقته– بعد أن عرف عنك كل شيء من ابنتك– أن يجعلك تؤمنين بقصة البراشوت بكل بساطة.

– لست أفهم معنى هذا.

– حقًا.. لقد عملنا على أن يفقد أصدقاؤك أثرك إذا تتبعوه، وقد يصلون إلى محطة "**يارو**" فيعلمون أنك ركبت في سيارة مع أحد الشباب.. أما الممرضة التي لا تشبهك من قريب أو بعيد.. والتي سارت على قدميها بين الساعة الواحدة والثانية في مدينة "**ليبن ريارو**"، فإن أحداً لن يدرك أن ثمة علاقة بينها وبين اختفائك.

– وبعد؟

– إنني معجب بأعصابك.. بل أنا شديد الإعجاب، ويحزنني استعمال الشدة معك، ولكنني مضطر لأن أعلم بالضبط كل ما اكتشفت في "**سان سوسي**"..

وإني أنصحك.. ولعلك تدركين ما قد يقود إليه عنادك.

فنظرت إليه "**توبنس**" بازدراء.. فاستطرد:

- نعم.. إنني أقدر ما تتميزين به من ثبات وعزم ولكن.. ماذا عن الوجه الآخر للصورة؟

- ماذا تعني؟

- إني أقصد زوجك.. "**توماس برسفورد**".. الذي كان يقيم إلى عهد قريب في "**سان سوسي**" تحت اسم السيد "**ميدوز**".. والذي يقيم الآن في قبو منزلي.

- "**تومي**".. لا أصدق ذلك.

- بل يجب أن تصدقيه.. فإن "**تومي**" العزيز كان ولا يزال في قبضة يدي، فإذا أجبت عن أسئلتي أنقذته.. أما إذا رفضت، فستسير الأمور على النحو المرسوم لها.. إذ سيقتل ويقذف بجثته في أعماق اليم.

- ماذا تريد أن تعرف؟

- لحساب من تعملين؟ وما وسيلتك للاتصال بهم؟ وما المعلومات التي أبلغتها لهم حتى هذه اللحظة؟ وبعبارة أخرى كل ما تعلمين.

فهزت "**توبنس**" كتفيها وقالت:

- أستطيع أن أقول لك من الأكاذيب ما يحلو لي.

- كلا، إنك لا تستطيعين ذلك.. لأنني سأبدأ بفحص كل ما تقولين.. ثم لا تنسي يا سيدتي العزيزة أنني أقدر مشاعرك نحو هذا العمل.. ثم إنني أقدر كل مجهوداتك أنت وزوجك.. ونحن في حاجة إلى أناس من أمثالكما لبناء الدولة الجديدة التي ستقوم على أنقاض هذه الدولة الغبية.

نظرت "**توبنس**" إليه، ثم راحت تبحث عن كلمة ترد بها عليه، وقالت دون وعي منها:

- أحلام "**سندريلا**"..! أحلام "**سندريلا**"..!

وأرادت بعبارتها التهكمية هذه أن تشبه آمال النازيين بقصة الأطفال المعروفة التي رأت كتابها مع الطفلة "**بتي**".. ولكنها دهشت عندما وجدت وقع هذه

الكلمات على "**هايدوك**" كأنه السحر، بل إنها فزعت لما رأته على وجهه؛ إذ قفز واقفًا مقتم الوجه، ورأت فيه "**توبنس**" فجأة ما رآه "**تومي**" من قبل.. الضابط البروسي الفظ الذي أخذ يسبها باللغة الألمانية بأوقح الألفاظ.. ثم قال بالإنجليزية:

– أيتها المخبولة، إنك لا تدركين نتائج إجابتك هذه.. لقد حكمت بالإعدام على زوجك وعلى نفسك.. ثم صاح بأعلى صوته:

– "**آنا**".

فدخلت المرأة التي فتحت الباب لـ"**توبنس**" فدفع "**هايدوك**" مسدسًا في يدها وقال لها:

– راقبيها ولا تترددي في إطلاق النار إذا احتاج الأمر.

وخرج كالعاصفة من الباب وأغلقه وراءه.. فقالت "**توبنس**" لـ"**آنا**":

– أستقتلينني حقًّا؟

– تحاولي أن تخدعيني.. لقد قتل ولدي "**أونو**" في الحرب الماضية وكان سني حينئذ ثمانية وثلاثين عامًا وقد أصبحت في الثانية والستين الآن، وعلى الرغم من ذلك..

وقد ذكر "**توبنس**" وجه هذه المرأة بتلك المرأة البولندية "**واندا بولونكا**" والأمومة.. بل إحساس الأم حين تفقد طفلها.. ولمعت فكرة في رأس "**توبنس**".. تلك الفكرة التي حاولت طويلا أن تتذكرها عن "**سليمان الحكيم**".

وفتح الباب ودخل الكوماندور "**هايدوك**".. وقال في غضب:

– أين هي، أين أخفيتها؟

فحملقت إليه "**توبنس**"، فإن سؤاله لم يكن له معنى في نظرها لأنها لم تأخذ شيئًا ولم تخف شيئًا.. وقال "**هايدوك**" لـ"**آنا**":

– اخرجي!

فسلمته المرأة المسدس وخرجت.. وجلس "**هايدوك**" على أحد المقاعد وكان

واضحًا أنه يبذل جهدًا جبارًا ليتمالك أعصابه.. ثم قال:

– لن تستطيعي الانتفاع بها.. فأنت هنا تحت رحمتي.. ولدي من الوسائل ما أحمل به الناس على الكلام، وستضطرين تحت ضغط هذه الوسائل، أن تعترفي لي بالحقيقة.. ماذا فعلت بها؟

ورأت "توبنس" أن هذه فرصتها الوحيدة للمساومة لو استطاعت أن تعرف ما «هذه» التي خبأتها.. فقالت في حذر:

– كيف عرفت أنها في حوزتي؟

– من كلامك أيتها الغبية.. وإني أعلم أنها ليست معك الآن، فقد غيرت ملابسك.

فقالت "توبنس":

– افترض أنني أرسلتها بالبريد إلى بعضهم.

– لا تكوني غبية.. فإن كل ما يرسل بالبريد يفحص وإني واثق بأنك لم ترسليها بالبريد.. وهناك وسيلة وحيدة.. وهي أنك خبأتها في "سان سوسي" هذا الصباح قبل خروجك.. وإني أسمح لك بثلاث دقائق لتقولي أين خبأتها.

ووضع ساعته على المنضدة وقال:

– ثلاث دقائق يا سيدة "توماس برسفورد".

وأخذت دقات الساعة تسمع في الغرفة.. وجلست "توبنس" صامتة دون أن يبدو على وجهها أي تغيير، وانكشف لها في تلك اللحظات كل ما كان خافيًا عليها.

وقال "هايدوك" فجأة:

– بقيت لك عشر ثوان.

فأخذت تراقبه كما لو كانت في حلم، وقد رفع مسدسه في يده وهو يعد.. واحد.. اثنين.. ثلاثة.. أربعة.. خمسة.

وعندما وصل العد إلى ثمانية.. انطلقت الرصاصة.. وانقلب بمقعده.

لم يكن قد لاحظ تحت تأثير حالته العصبية ومراقبته للساعة أن الباب كان

يفتح ببطء.

ووقفت "**توبنس**" على قدميها، واتجهت مسرعة نحو الرجال الذين دخلوا من الباب وصاحت:

– السيد "**جرانت**".. لقد تخلصنا الآن من "**ن**".

– نعم.. نعم يا عزيزتي.. وأنت بخير الآن..

– إذن أسرعوا، فليس لدينا وقت.. ألديكم سيارة هنا؟

– نعم.

– هيا إلى "**سان سوسي**".. حالا.. قبل أن يتصل به أحد هنا ولا يجد رداً.

وأخذ عداد السرعة في السيارة يتحرك نحو النهاية.. ولم ينطق أحد من راكبي السيارة بحرف واحد فيما عدا "**توبنس**" التي قالت:

– "**تومي**".

فأجابها "**جرانت**":

– بخير.

وأخيراً وصلت السيارة، فقفزت "**توبنس**" وتبعها "**جرانت**" وأخذا يرتقيان الدرج في سرعة جنونية.. فلمحت "**توبنس**" الأدراج في غرفتها مقلوبة رأساً على عقب، فمرت بها ودخلت إلى غرفة آل "**كايلي**" وسارت إلى الفراش ورفعت الأغطية، ثم استدارت إلى السيد "**جرانت**" وقدمت إليه أحد كتب الأطفال وقالت له:

– هأنت تجد كل ما تريد في هذا الكتاب.

وسمعا في هذه اللحظة صوتاً يقول:

– ماذا يجري هنا؟

والتفتا نحو الباب فرأيا السيدة "**سبروت**" واقفة به، فقالت "**توبنس**":

– والآن أقدم لك "**م**".. نعم السيدة "**سبروت**".. كان يجب أن أعرف ذلك منذ حين.

- 15 -

جلس "تومي" والسيد "جرانت" و"ألبرت" يحتسون الشراب، وقد وقفت "توبنس" تقول:

- كان يجب أن أعرف ذلك منذ حين.

فقال "تومي":

- حدثينا بما عندك.

- عليك أن تبدأ أنت أولا.

- ليس لدي كثير.. إن حادثًا عارضًا هيأ لي الكشف عن سر الجهاز اللاسلكي المخبأ في حمام «استراحة المهربين».. وقد خيل إليّ أنني خرجت بهذا السر.. ولكن "هايدوك" كان أحرص عليه مني.

فقاطعته "توبنس":

- فاتصل بالسيدة "سبروت" تليفونيًا، فانتظرتك بباب الفيلا ومعها مطرقة.. وقد غابت عن لعب الورق ثلاث دقائق فقط، ولاحظت فعلا أنها كانت تلهث لما عادت، ومع ذلك فلم أشك فيها مطلقًا.

فقال "تومي":

- يأتي بعد ذلك دور "ألبرت"، فقد اكتشف الرسالة اللاسلكية التي بعثتها إليه من أنفي فاتصل بالسيد "جرانت"، وحضر كلاهما في تلك الليلة، واتفقنا على أن أبقى حيث أنا، حتى يتاح لنا القبض على الجماعة التي وكل إليها أمر قتلي وقذف جثتي في البحر.

فقال السيد "جرانت":

- وعندما خرج "هايدوك" من «استراحة المهربين» احتل رجالي المكان.

فقالت "توبنس":

- كنت أعني الجميع إذ إنني شككت في كل النزلاء، ما عدا السيدة "سبروت"، وعندما استمعت إلى ذلك الحديث التليفوني عن الرابع من الشهر،

كان هناك ثلاثة أشخاص في المنزل.. شككت في اثنتين هما السيدة "**برينا**" والسيدة "**أوروك**"، ثم اتفقت مع "**ألبرت**" على ما يفعل.. وفجأة ظهر "**توني مارسدون**" على المسرح، وقد أقنعني في أول الأمر، أنه على علاقة بابنتي "**ديبورا**" ولكنني تذكرت أنني لم أره يزورنا من قبل، وعلى الرغم من أنه أظهر لي أنه يعلم كل شيء عن عملي في "**سان سوسي**" فقد صدق أن "**تومي**" في "**اسكتلندا**" فرأيت أن ذلك من الغرابة بمكان؛ إذ إنه ليس هناك من يعلم حقيقة عملي في "**سان سوسي**" سوى السيد "**جرانت**" الذي كان قد أخبرني أن رجال الطابور الخامس منتشرون في كل مكان، فصممت على أن أكشف حقيقة "**مارسدون**" هذا، فقلت له شيئًا عن العمة "**جراسيا**" وصديقتي "**بنلوب بلين**" باعتبارهما من الوسائل التي يتصل بي "**تومي**" بها. وقد نجحت الخطة فقد وصلني خطاب من صديقتي "**بنلوب بلين**" المزعومة فتأكدت أن لعبتي قد جازت على "**مارسدون**"، ولم يكلفني إتمام خطتي سوى حديثي لحائكة الثياب بالتليفون التي ألغيت معها الموعد المتفق عليه ولم يكن في الواقع حديثي هذا إلا مع "**ألبرت**" الذي فهم كيف يتصرف من ناحيته.. ثم سرت إلى نهاية الشوط وأنا أعلم أن السيد "**جرانت**" على علم بأنني في طريقي إلى "**يارو**".. كما أخبره "**ألبرت**".

فقال السيد "**جرانت**":

– وقد أدينا واجبنا على خير وجه.. فقد تبعناك خطوة خطوة.. دون أن يشعر الأعداء حتى وصلت إلى عيادة الطبيب، وقد عرفنا كيف نحتال على تلك المرأة الألمانية.. فدخلنا في الوقت المناسب.

فقالت "**توبنس**":

– كنت أعلم أنكم آتون وكل ما فعلت أنني أطلت الوقت مع "**هايدوك**".. والغريب في الأمر أن المعضلة كلها انحلت في تلك اللحظات.. وعندما قلت «أحلام "**سندريلا**"» انقلب كيان "**هايدوك**" وتبين لي أن ذلك لم يكن بسبب سخافة ما قلت.. ولكن لأن وراء تلك الكلمات سرًا خطيرًا بالنسبة إليه.. ثم ما

بدا من المرأة الألمانية "آنا" ذكرني بما بدا على وجه "**واندا بولونكا**" البولندية، وعندئذ تذكرت "**سليمان الحكيم**" واكتشفت الأمر كله.. هو أن "**بتي**" لم تكن ابنة السيدة "**سبروت**".

فصاحوا جميعًا.. وكيف ذلك!

فقالت "**توبنس**":

– أتذكرون المرأتين اللتين ذهبتا إلى "**سليمان**" بطفل وكل منهما تدعي أنه ولدها، وكيف أن "**سليمان**" حكم بقسمة الطفل بينهما، فرضيت الأم الزائفة بذلك، ولكن الأم الحقيقية، فضلت أن تأخذه الأخرى على أن تراه يذبح.. والذي حدث في تلك الليلة أن قتلت السيدة "**سبروت**" المرأة الأخرى.. وقلتم جميعًا حينئذ.. إنها معجزة دامية.. إنها معجزة الغريزة. فقد كان من الجائز جداً أن تصاب الطفلة.. والواقع أنه لو كانت الطفلة ابنة السيدة "**سبروت**" ما خاطرت بإطلاق النار، ومعنى هذا أن "**بتي**" لم تكن ابنتها.

– ولكن كيف..!

– لأن "**واندا بولونكا**" هي أم "**بتي**" الحقيقية وتذكرت إحساسي بسبب رؤيتي لوجهها عندما رأيتها أول مرة.. كان الشبه بينها وبين "**بتي**" هو السبب في ذلك الإحساس.

– يا للمسكينة.. لقد سمحت للسيدة "**سبروت**" بتبني طفلتها فلاقت حتفها.

– ولكن لماذا أرادت السيدة "**سبروت**" أن تتبنى طفلة..؟

– لسبب بسيط.. فإن أحداً لم يشك إطلاقًا في السيدة "**سبروت**".. إذ لم يحدث في تاريخ الجاسوسية.. أن كانت هناك جاسوسة تصحب معها طفلة. ولا شك في أنكم تذكرون أن السيدة "**سبروت**" رفضت استدعاء البوليس إذ كانت تعلم أنها على الرغم مما دفعت من نقود لتلك المرأة، لم تستطع إرضاءها، وأدركت أن الأم هي التي استعادت طفلتها، وخشيت أن يكتشف البوليس الحقيقة، فعمدت إلى كتابة تلك الرسالة التي زعمت أنها وجدتها في غرفتها،

ثم تحايلت على استدعاء الكوماندور ليساعدها في محنتها.. ثم حدث ما تعرف. أما عن عبث "بتي" بأربطة حذائي فلا شك في أنها كانت ترى السيدة "**سبروت**" تفعل ذلك بالمياه بواسطة الأربطة المشبعة بالسم، ولم يكن لـ"**كارل**" يد في تلك الجريمة، إذ لابد أن رأت السيدة "**سبروت**" "**بتي**" تقلدها في غرفتي فزيفت أدلة ضد "**كارل**" وقبض عليه إذ وجدت بعض الأربطة المسممة في حجرته وفي معمله.

وقال السيد "**جرانت**" :

– وهناك فائدة أخرى من وجود الطفلة مع السيدة "**سبروت**".. لقد جعلت من أقاصيصها القديمة سجلا لأعمال الجاسوسية وحرمت على الطفلة أن تلعب بها بحجة قذارتها.. لقد كشف الإخصائيون في كتاب «أحلام "**سندريلا**"» معلومات مهمة عن الأسطول كتبت بحبر سري، كذلك بقية الكتب.. ولقد كان الفضل كله لك يا سيدتي. بقيت بعد ذلك مفاجأة يسرني أن أخبركم بها. هي أن "**كارل فون دينيم**" ليس "**كارل فون دينيم**" على الإطلاق.. إنه صديق لصاحب ذلك الاسم الذي قتله النازي.. ومنذ سنوات كلفنا أحد رجالنا بمهمة في "**ألمانيا**" فتعرف إلى "**كارل فون دينيم**" الحقيقي وقد عرف أسرار عائلته فلما قتل "**كارل**" الحقيقي اتخذ رجلنا شخصيته وانتحل اسمه إتمامًا للمهمة المكلف بها، وقبل الحرب مباشرة عاد إلى "**إنجلترا**" والتحق بالعمل في معمل الكيمياء منتحلا شخصية "**كارل فون دينيم**" إتمامًا لمهمتنا.. ولقد عرفت "**شيلا**" أخيرًا وقبلت أن تتزوج به عندما طلب يدها.

تمت بعون الله

جريمة القطار

- 1 -

كانت الساعة الخامسة والدقيقة 32 تمامًا من مساء الجمعة 9 كانون الأول(ديسمبر)، عندما تسلم ناظر محطة "**إيترلي**" الإشارة التالية من محطة "**فوريست هيل**" :

« قطار الساعة الخامسة والدقيقة 28 القادم من "**لندن**" قد مر الآن، إحدى مركبات الدرجة الأولى مظلمة تمامًا، ابحثوا عن الأسباب ».

وقرأ ناظر المحطة هذه الإشارة وعقب عليها بقوله:

– لابد أن (الكوبس) احترق، أو يكون أحد الأسلاك قد أصابه تلف.

ثم التفت إلى مساعده وقال:

– أحضر مصباحًا يا "**ويب**" .. وأسرع فإن القطار سيصل بعد لحظات.. إن أي تلف في جهاز الإضاءة لن يتيسر إصلاحه إلا في محطة "**كرويدن**" .. ولا سبيل إلا أن تزود المركبة بمصباح غاز لإضاءتها إلى أن تصل إلى "**كرويدن**" .

قال ذلك وتناول مصباحًا ليستعين به في سيره، فقد كان الضباب كثيفًا مما زاد الظلام حلكة.

وانتقل الناظر إلى الرصيف الأخير عبر النفق الذي يمر تحت القضبان الحديدية، واستعد لاستقبال القطار.

ووصل القطار في الوقت المحدد تمامًا، أي في الساعة الخامسة والدقيقة 42، وكانت هذه أول محطة يتوقف فيها منذ بداية رحلته من "**لندن**" .

وكانت العربات غاصة بالركاب إلى حد الاختناق كما هي العادة. وما إن توقف القطار حتى نشطت الحركة في المحطة وتدفق الركاب من وإلى العربات، بينما هرول الناظر ومساعده على الرصيف وبيد كل منهما مصباح؛ لتفقد النور في المركبات. وأخيرًا صاح ناظر المحطة:

– ها هي المركبة المظلمة.

وأدهشه أنه لم يجد أحداً من المسافرين يطل من نافذة المركبة ويحتج ويشكو من حالة الإظلام.

قال:

– يخيل إليّ أن المركبة خالية من المسافرين، وهو أمر غريب غير مألوف في قطار الساعة الخامسة والدقيقة 28.. هلم بنا يا "ويب".

وهمَّا بالصعود إلى المركبة، ولكنهما فوجئا ببابها مغلق، وعليه لوحة صغيرة تحمل كلمة: «محجوز» فهتف:

– ما معنى هذا؟ أين مفتاحي؟

وبحث في جيبه حتى عثر على المفتاح الذي يستخدم في فتح أبواب المركبات كافة.. ففتح باب المركبة وقال يحدث مساعده:

– دعنا نفحص مصابيح المركبة.

وصعد إلى المركبة، وحرك مصباحه في يده؛ ليبدد الظلام الذي يخيم بداخلها.

ونظر، فإذا بالثريا المثبتة بسقف المركبة محطمة، واللمبات الكهربائية الثلاث مفقودة.

وأجال البصر حوله فرأى حطام النجفة واللمبات الثلاث على أحد المقاعد، ووقع بصره في المقعد المقابل على...

أفلتت من فمه صيحة ذعر، وتراجع إلى الوراء خطوة أو خطوتين في هلع.

ذلك أنه رأى في ذلك المقعد، جثة رجل جالس ووجهه نحو القاطرة، وقد انحنى جسده إلى الأمام، وتدلى من يده مسدس، بينما كان بين عينيه ثقب عميق لا شك في أنه من أثر رصاصة أطلقت على الرأس.

جمد ناظر المحطة في مكانه لحظة، ثم تمتم حالما استرد أنفاسه:

– انتحار.

وأسرع بالخروج، وأعاد غلق الباب، وأمر "ويب" أن يقف حارساً على المركبة،

ثم انطلق لينبئ سائق القطار ويخطر البوليس المحلي.

قيل في الأمثال: "رب مصادفة خير من ألف ميعاد"، وقد شاءت المصادفة أن يكون السيد "**مافريك ناركوم**" - المفتش بإدارة "**اسكتلانديارد**" - أحد المدعوين إلى حفل أقيم تكريمًا لعمدة "**إيترلي**"، وعندما اكتشف ناظر المحطة الحادث، كان السيد "**ناركوم**" وبعض المدعوين يقفون على الرصيف الأخير في انتظار القطار الذي سيعود بهم إلى "**لندن**"، وكان "**ناركوم**" يتوقع أن يلتقي في ذلك القطار بصديقه "**هركيول بوارو**".. البوليس السري البلجيكي القصير القامة الأصلع الرأس.

وما إن علم مفتش البوليس بالحادث حتى انتقل إلى الرصيف الأخير وأعلن شخصيته وشرع في العمل، وعندما وصل رجال البوليس المحلي، كان "**ناركوم**" قد ألم بتفصيلات الحادث، وقام ببعض الأبحاث.

كان أول ما فعله، أنه بحث عما إذا كان هناك اسم مكتوب على اللوحة التي تعلن أن المركبة محجوزة... وقد وجد مثل ذلك الاسم مكتوبًا بقلمَ أزرق. وقرأ في اللوحة:

«محجوزة.. للورد "**ستافورنيل**"».

وهتف:

- يا إلهي!!

كان الاسم معروفًا جداً.. فلطالما تحدثت الصحف عن هذا اللورد ومباذله. وانحلاله وسوء طباعه.

تمتم المفتش قائلا:

- لقد لقي حتفه أخيراً. ثم التفت إلى ناظر المحطة وقال:

- أعطني مصباحك وافتح باب المركبة، ودعنا..

ولم يتم عبارته، فقد دوى في تلك اللحظة صفير القطار المتجه إلى "**لندن**".. واقترن الصفير بجلبة شديدة، فأسرع المفتش إلى الانتقال إلى الرصيف الآخر عبر النفق ووجد "**بوارو**" يطل من نافذة إحدى مركبات القطار القادم. فهرول إليه.

ودار بين الرجلين حديث سريع، انتهى بأن وثب "بوارو" إلى الرصيف قبل أن يتحرك القطار ويستأنف رحلته إلى "لندن".

*****

وبعد قليل كان "ناركوم" و"بوارو" يجتازان النفق وهما يتحدثان بصوت خافت، وعندما وصلا إلى المركبة المظلمة، وجدا رجال البوليس المحلي بقيادة أحد الضباط يقومون بحراستها، فقال "ناركوم" يحدث الضابط:

– دعني أقدم لك السيد "بوارو"... لابد أنك سمعت عنه.

فتبادل الرجلان التحية، وقال "ناركوم":

– أرجو إمدادنا بأكبر طاقة من النور.. فإن السيد "بوارو" يريد إلقاء نظرة على الجثة.. كما أرجو أن تامر رجالك بمحاصرة المركبة ومنع المسافرين من الاقتراب منها.

والتفت إلى ناظر المحطة وقال:

– قل لسائق القطار سأصدر إليه تعليماتي بعد لحظات.

وفتح "بوارو" باب المركبة ودخل، وألقى على الجثة نظرة سريعة وقال:

– هذه جريمة قتل.. انظر إلى وضع المسدس في يده.. إنه مقلوب.. ولكن صبراً لحظة.. أريد أن أتأكد.

وتناول المسدس من يد الجثة بسهولة.. ورفع فوهته إلى أنفه. ثم فتحه ونظر إلى مخزن الرصاصات وابتسم وقال يحدث "ناركوم":

– تماماً كما توقعت.. لقد أطلقت من هذا المسدس رصاصة واحدة، ولكنها لم تطلق اليوم.. أو أمس، وإنما أطلقت منذ يومين أو أكثر الرائحة تقول ذلك يا سيد "ناركوم".. إنها جريمة قتل لا شك فيها.. وقد أعد القاتل عدته بدقة تامة.

فحملق ناظر المحطة نحوه في ذهول وقال:

– ولكن يا سيدي.. إذا كان هناك قاتل.. فأين ذهب؟ إن القطار لم يتوقف

في أية محطة منذ قيامه من "لندن" . . وعلى فرض أن القاتل استقل القطار من "لندن" فكيف غادره؟

فقال "ويب" :

– لعله وثب من النافذة، أو وقف على سلم المركبة حتى أبطأ القطار في سيره قبل وصوله إلى هذه المحطة، ثم وثب إلى الأرض وتوارى في الحقول.

– هراء.. عندما اكتشفنا الجثة. كان بابا المركبة مغلقين.. وكذلك كانت النافذتان.. إنك رأيت ذلك بنفسك كما رأيته.

فقال "ويب" :

– هذا صحيح.. إذن أين ذهب القاتل؟ وكيف؟

وفي هذه الأثناء، كان "بوارو" يفحص الجثة، فرفع رأسه فجأة وقال يحدث ناظر المحطة:

– أرجو أن تأمر رجالك بفحص جميع التذاكر... أعني تذاكر الركاب الذين ما زالوا في القطار.. أو الذين غادروه في هذه المحطة.. فإذا وجدوا تذكرة لم تثقب في محطة "لندن" عند الدخول فليحجزوا صاحبها... وأنا شخصيًا سأقوم بفحص تذاكر القادمين إلى هذه المحطة.. وفي الوقت نفسه، أرجوك الاتصال بجميع المحطات بين هنا و"لندن"؛ لمعرفة ما إذا كان هناك عامل إشارة آخر غير عامل الإشارة في محطة "فوريست هيل" قد لاحظ إظلام هذه المركبة أثناء مرور القطار بمحطته.

وقد تم تنفيذ كل ذلك على وجه السرعة. وظهر أن جميع التذاكر قد ثقبت في محطة "لندن" لدى دخول الركاب. وأن عمال الإشارة في جميع المحطات– فيما عدا "فوريست" – لم يلاحظوا إظلام أية مركبة من المركبات عند مرور القطار بمحطاتهم.

فقال "بوارو" :

– هذا يضيق نطاق البحث يا سيد "ناركوم" . إذ يستدل منه أن نور المركبة قد أطفئ في الطريق بين محطتي "أوك بارك" و"فوريست هيل" .

ثم التفت إلى ضابط البوليس المحلي وقال:

– أريد منك معروفًا.. ضع بعض رجالك في هذه المركبة، ودع القطار يواصل رحلته... إن المحطة التالية هي محطة "**نوروود**".. وأعتقد أن بها تحويلة.. فمن الممكن فصل هذه المركبة هناك، وتركها على القضبان الجانبية.. تحت حراسة رجالك إلى أن ألحق بكم أنا والسيد "**ناركوم**".

– حسن يا سيدي.. هل هناك تعليمات أخرى؟

– نعم، دع ناظر محطة "**نوروود**" يرسل إلينا عربة ترولي مزودة بمصابيح كشافة.. فإنني أريد ارتياد الطريق من هنا إلى محطة "**أوك بارك**"... فإذا كان أحد قد غادر القطار في هذا الطريق، فإننا لابد أن نجد آثاره واضحة فوق الثلوج التي تغطي الأرض.

- 2 -

بعد نحو عشرين دقيقة، جاءت عربة الترولي يقودها اثنان من عمال محطة "**نوروود**".. ونزلا على إرادة "**ناركوم**"، أبرق ناظر المحطة إلى محطة "**لندن**" لإيقاف جميع القطارات لمدة نصف ساعة لمصلحة التحقيق الذي يقوم به مفتش "**اسكتلانديارد**". ثم استقل "**بوارو**" و"**ناركوم**" عربة الترولي التي انطلقت بهما على شريط السكة الحديد في اتجاه "**أوك بارك**" والمصابيح القوية تكشف الطريق أمامها.

كان هناك أربعة خطوط، خطان فرعيان يربطان "**لندن**" بضواحيها ذهابًا وإيابًا، وخطان رئيسان.

وكانت الخطوط الأربعة تتألق تحت ضوء المصابيح الكاشفة. فلم ير "**بوارو**" و"**ناركوم**" بينها أي أثر لأقدام.

قال المفتش في نهاية الرحلة:

– مما لا شك فيه أن القاتل لم يطأ هذا الطريق بقدمه.

وأمر العاملين بالعودة بالترولي واستطرد قائلا :

– هل لك رأي آخر يا سيد **"بوارو"** ؟

– كلا .. ولكن مما لا شك فيه أيضاً أنه غادر القطار في مكان ما، بطريقة ما، وإلا لوجدناه في المركبة.

– إن المسألة هي : متى غادر القطار ؟ وكيف غادره؟ إننا نعلم من أقوال الركاب أن القطار لم يتوقف لحظة واحدة بين محطتي **"لندن"** و**"إيترلي"** ، ونعلم أن جميع المركبات كانت مضاءة إلى أن مر القطار بمحطة **"أوك بارك"** .. وأن أحداً لم يسمع صوت طلق ناري، وأن القاتل لم ينتقل إلى مركبة أخرى وأن الممر كان غاصًّا بالركاب، ولو أنه غادر المركبة لاضطر الركاب المحتشدون في الممر أن يفسحوا له طريقًا وهو ما لم يحدث... وقد أسفرت عملية البحث التي قمنا بها الآن عن عدم وجود أي أثر على الثلوج يدل على أن أحداً قد غادر القطار أثناء سيره في المنطقة التي نعتقد أن الجريمة حدثت فيها... وفي أول محطة توقف فيها القطار وهي محطة **"إيترلي"** ، كانت نافذتا المركبة مغلقتين وكذلك كان باباها.. ولا أثر للقاتل.. فكيف تفسر هذا اللغز أيها الصديق؟ هل أنت واثق تمامًا بأن الحادث ليس انتحاراً؟

فابتسم **"بوارو"** وأجاب :

– يا عزيزي السيد **" ناركوم"** .. إن وضع المسدس في يد القتيل يقطع الشك باليقين في هذا الصدد، أضف إلى ذلك أنه لا يوجد أثر لدخان البارود على جبين اللورد. وأن الرجل الذي يريد الانتحار لا يطلق الرصاص بين عينيه.. وإنما يطلقه على صدغه أو سقف فمه.. لأن...

وكف عن الكلام فجأة، ثم ألقى بيده على كتف أحد الرجلين اللذين يقودان عربة الترولي وقال :

– عد بنا .

فأوقف الرجلان العربة، ثم انطلقا بها في الاتجاه المضاد.. إلى أن أمرهما **"بوارو"** مرة أخرى بالتوقف، وتوقفت العربة على مقربة من محطة **" سيدنهام"** .

كـان "بوارو" طول الوقت يتـفـحص الطريق الذي يتـألق في ضـوء المصـابيح الكاشفة، ولم يلبث أن وثب من العربة وسار بضع خطوات، ثم انحنى والتقط شيئًا كان بين القضبان ونظر إليه بإمعان ثم طوى يده عليه.

كان ذلك الشيء هو مفتاح من معدن لامع، طوله نحو سبعة سنتيمترات، من نوع المفاتيح التي تستخدم في فتح أبواب مركبات السكك الحديدية.

كانت نظرة واحدة إلى المفتاح تدل على أنه جديد.

قال "بوارو" وهو يبسط يده بالمفتاح:

– مهما يكن من أمر القاتل، فإنه غادر القطار في هذه البقعة.. فسقط منه المفتاح.. أو لعله ألقى به على الأرض ليتخلص منه. بعد أن استخدمه في غلق باب المركبة.. ومع ذلك فإنه لا توجد على الأرض آثار أقدام.. ولكن هناك شيئًا مؤكداً هو أن المكان الذي وجد فيه المفتاح بين القضبان يدل على أن القاتل قد غادر القطار من الجانب الآخر.. أي الجانب الذي لا يكون بمحاذاة الرصيف عندما يتوقف القطار في المحطات.

فصاح "ناركوم" قائلا:

– يا لها من فكرة جنونية!! لو أن قطاراً آخر مر على القضبان المجاورة لمزقه إربًا.. خاصة وأن القطارات تسير في هذه المنطقة بأقصى سرعتها.. ولا تبطئ إلا عندما تقترب من "كرويدن".

فقال "بوارو" وهو يتأمل المفتاح:

– نعم.. ثم إن قوة الامتصاص تكون على أشدها بين قطارين مسرعين.. فإذا تواجد إنسان بين القطارين فإن عجلات أحدهما تلتهمه في غمضة عين.. ما دام لم تكن هناك قطارات أخرى على القضبان المجاورة.

ثم قطب حاجبيه فجأة وقال:

– أظن أننا توصلنا إلى أمثل ما يمكن التوصل إليه يا سيد "ناركوم"، ويحسن بنا الآن أن نعود إلى محطة "نوروود" لكي أعيد فحص المركبة والجثة.

– هل طرأت لك فكرة جديدة؟

– بل عدة أفكار.. ولكنها جميعًا قد لا تسفر عن شيء بعد نصف ساعة.

– ماذا تعني؟

– إنني سأغادر هذه العربة في محطة "**سيدنهام**" لكي أتصل تليفونيًّا بمحطة "**لندن**".. فثمة بعض أمور أريد الاستفسار عنها. وسوف أستأجر إحدى السيارات لألحق بك في "**نوروود**" بعد ساعة.. أرجو ألا تدع أحدًا يدخل المركبة أو يعبث بالجثة قبل أن أصل... ومسألة أخرى... لا أدري هل خانتني الذاكرة أم لا.. ولكن أليس اللورد "**ستافورنيل**" هذا هو صاحب المغامرة المشهورة مع الراقصة الفرنسية "**فيفي دي لابار**" التي أثارت ضجة كبيرة في "**لندن**" في العام الماضي؟

فاجاب "**ناركوم**":

– نعم، هو نفس الشخص، لقد كان طول حياته إنسانًا فاسدًا لا أخلاق له، ولم تكن الآنسة "**فيفي**" خيرًا منه، فإنها ما كادت تظفر بالشهرة وترى رجالا من أمثال "**ستافورنيل**" يتهالكون عليها ويخطبون ودها حتى نبذت زوجها، وقد أخطأ الزوج حين وقف موقف المتفرج بدلا من أن يضرب اللورد ويحطم ضلوعه.. فقد أقدم اللورد بعد ذلك على لعبة قذرة، أرغمت الزوج الفرنسي التعس على مغادرة البلاد، وذلك بأن أوعز إلى المتاجر التي تتعامل "**فيفي**" معها بمطالبة الزوج بديون زوجته.. ولما كان الرجل فقيرًا رقيق الحال، فإنه اضطر إلى مغادرة البلاد فرارًا من الدائنين.

وقد أثار هذا الحادث ضجة كبيرة في ذلك الوقت، وعلى الرغم من أن القصة لم تنشر في الصحف إلا أن الفضيحة كانت من الضخامة بحيث اضطرت زوجة اللورد "**ستافورنيل**" إلى هجره، ورفضت الإقامة ساعة أخرى مع رجل مثله.

– آه.. إذن فهو متزوج؟

– نعم، وزوجته من أجمل نساء "**إنجلترا**".. ولم يكن قد مر على زواجهما أكثر من عام عندما حدثت فضيحة "**فيفي**".. وقد كان وراء قصة زواجه لعبة أخرى من ألاعيبه القذرة. فاضطرت المرأة المسكينة إلى الاقتران به.

– هل اقترنت به على الرغم منها؟

– نعم.. كانت أصلا مخطوبة لضابط شاب يعمل في "الهند"، وكان والدها أيضًا ضابطًا في «الجيش».. ولكنه أفقر من فأر الكنيسة، وقد أدمن الشراب والقمار والمراهنات، وكان فظًّا غليظ القلب، وأنانيًّا إلى أبعد حد.

وقد نفرت ابنته من اللورد "ستافورنيل" حين وقع بصرها عليه لأول مرة، وكانت تعرف الكثير عن مهازله ونزواته وسوء خلقه فرفضت أن تستقبله.. ولهذا قرر الاقتران بها لكي يذلها ويحطم كبرياءها.. فأوقع أباها في براثنه.. وأقرضه النقود بغير حساب، واستكتبه صكوكًا بمبالغ جسيمة خسرها معه في القمار.. إلى أن غرق الكولونيل العجوز في الديون. واستحال عليه السداد.

وهنا بدأ اللورد يطالب بنقوده، ثم وافق أخيراً على النزول عنها إذا رضيت به ابنة الكولونيل زوجًا لها. وذهب الرجلان إلى الابنة المسكينة كذئبين جائعين.. واستعرضا الموقف أمامها.

إن أباها معرض لفضيحة ستعصف به عصفًا... إنه سيطرد من الجيش ومن سائر المنتديات، بل ومن المجتمع المحترم كله.. وسيقضي بقية حياته في فقر مدقع ما لم تتقدم هي لإنقاذه بالموافقة على الاقتران باللورد.

وما زال الاثنان يضربان على هذا الوتر حتى اضطرت المسكينة في النهاية إلى الموافقة. وتم الزواج.. ولكن حياتها صارت بعد ذلك جحيمًا لا يطاق، لأن اللورد لم يكن يعبأ بها أو يقيم لشعورها وزنًا.

لقد اقترن بها لمجرد الرغبة في الانتقام منها وإذلالها.. ويقال إنهما ما كادا يعودان من رحلة شهر العسل حتى بدأ يسومها العذاب فقال "بوارو" بلهجة الرثاء:

– مسكينة!!! وماذا حدث لخطيبها الأول... ذلك الضابط الشاب الذي كان في "الهند" خلال هذه الأحداث؟

– لقد جن جنونه عندما علم بما حدث.. أقسم أن يقتل "ستافورنيل".. ولكنه هدأ مع مـــرور الوقت... ورضخ للأمـــر الواقع.. إنه يدعى الكابتن

"**كروفورد**" .. وقد علمت أنه عاد إلى "**إنجلترا**" مؤخراً.. وأنه مازال يحب الليدي بجنون.. وبلا أمل..

– ولماذا بلا أمل؟ إن سلوك اللورد يهيئ لزوجته أكثر من فرصة لطلب الطلاق.

– هذا لا شك فيه.. وليس في "**إنجلترا**" قاض واحد لا يمنحها الطلاق إذا هي طلبته... ولكن الليدي امرأة متدينة لا تعترف بالطلاق. ولا توجد أية قوة تستطيع إقناعها بالاقتران بالكابتن "**كروفورد**" ما دام زوجها الأول على قيد الحياة.

– آه... إذن فإن زوج "**فيفي**" ليس الشخص الوحيد الذي يحقد على اللورد ويتمنى هلاكه.. هل للورد أعداء آخرون؟

– هناك عشرات.. إنه كسب عداوة كل شخص اتصل به.. ولا يوجد، فيما أعلم، سوى شخص واحد يذكره بالخير.

– ومن يكون هذا الشخص؟

– السيدة "**برنكويرث**" .. أرملة شقيقه الأصغر.. الذي كان بدوره رجلا متلافاً. وقد تركها غارقة في الديون إلى أذنيها، دون أي إيراد تنفق منه على نفسها وطفلها الذي كان وقتئذ في الخامسة من عمره، وكان "**ستافورنيل**" يميل إليها، فخف إلى نجدتها، ودفع كل ديونها ورصد لنفقاتها مبلغاً سنوياً لا بأس به، واتفق على تعليم ابنها، ولما كبر الابن، ألحقه بكلية "**ايتون**"، وإذا كانت في "**ستافورنيل**" بقية من خير، فإن الفضل في ذلك يرجع إلى هذا الشاب، فقد كان "**ستافورنيل**" يحبه من كل قلبه.. ربما لأنه لم يرزق ولداً من صلبه.. ولكن صبراً... لقد أصبح هذا الشاب هو الوريث الوحيد لثروة اللورد.. يا إلهي!!! وكيف لم أفطن إلى ذلك... حقًّا إنها ضربة حظ بالنسبة إلى هذا الشاب.

فقال "**بوارو**" :

– نعم.. إنها ضربة حظ بالنسبة إليه... وكذلك بالنسبة إلى الليدي "**ستافورنيل**" .. والكابتن "**كروفورد**" ولكنها ضربة قاصمة للسيدة

"**برنكويرث**" والآنسة "**فيفي دي لابار**"...

– معنى ذلك أنه كان هناك ثلاثة رجال على الأقل يهمهم أن يموت اللورد، أولهم زوج الراقصة "**فيفي**" الذي يحقد عليه لأنه حطم حياته الزوجية، والثاني هو الكابتن "**كروفورد**"، الذي يريد الاقتران بالليدي، والثالث هو ابن أخيه الشاب، الذي يرث كل ثرواته... وأنا لا أستبعد أن يكون أحد هؤلاء الثلاثة هو القاتل...

فقال "**بوارو**":

– ها نحن قد وصلنا إلى "**سيدنهام**"... إلى اللقاء يا سيد "**ناركوم**"... سألحق بك في محطة "**نوروود**" في أسرع وقت ممكن.. وبهذه المناسبة..

– نعم.

– أرجو أن تستفسر من محطة "**لوليفيل**" – وهي آخر محطة في سكك حديد ضواحي "**لندن**" – عما إذا كان أحد الركاب قد نسي تابوتًا أو منضدة خشبية من النوع الذي يستخدم في كي الملابس.

- 3 -

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة عندما وصل "**بوارو**" إلى محطة "**نوروود**"..

كان هادئًا ثابت الجنان كالعهد به دائمًا، وقد وجد المفتش "**ناركوم**" في انتظاره في غرفة صغيرة خاصة وضعها ناظر المحطة تحت تصرفه.

وقد وثب "**ناركوم**" من مقعده حالما رأى "**بوارو**" وهتف:

– كم أنا سعيد بمقدمك.. كنت أنتظرك على أحر من الجمر.. فهناك أشياء كثيرة أريد أن أحدثك عنها... أولها أننا تحققنا بما لا يدع سبيلا للشك من أن القتيل هو اللورد "**ستافورنيل**".. وثانيها أننا أبرقنا إلى أقاربه لنخطرهم بمصرعه، فأجابت الليدي "**ستافورنيل**" والسيدة "**برنكويرث**" بأنهما في

طريقهما إلى هنا، وأنا أتوقع وصولهما بين لحظة وأخرى... بيد أن النبأ الذي قد يهمك أكثر من سواه، هو أن زوج الراقصة "**فيفي**" موجود حاليًا في "**لندن**". فقد ذكرت السيدة "**برنكويرث**" في برقيتها أنها رأته في "**لندن**" صباح اليوم.

فصاح "**بوارو**":

- أحقًّا!!! يخيل إليّ أنها امرأة على جانب عظيم من الذكاء... ولكن حدثني.. هل وجدت شيئًا في محطة "**لوليفيل**"؟

- نعم يا سيد "**بوارو**".. والواقع أنني لا أعرف هل أنت عبقري أم ساحر.. ماذا جعلك تطلب الاستفسار من هذه المحطة عن شيء مفقود؟

- ماذا وجدوا؟ تابوتًا أو منضدة لكي الملابس؟

- لا هذا ولا ذاك، ولكنهم وجدوا مائدة خشبية من النوع الذي تستخدمه السيدات في تفصيل الملابس، أعني مائدة يمكن طيها ونقلها بسهولة.. وقد وضعوها في مخزن الأشياء المفقودة؛ لأنهم لا يعرفون صاحبها... لقد وجدوها في...

فقاطعه "**بوارو**" قائلا:

- أظن أنني أعرف أين وجدوها.. إنهم وجدوها في إحدى مركبات الدرجات الأولى في القطار الذي يغادر "**لندن**" في الساعة الخامسة و18 دقيقة. ويصل إلى "**لوليفيل**" في الساعة الخامسة و43 دقيقة... كلا... أرجوك ألا تسأل الآن. هلم بنا إلى المركبة لنلقي نظرة على الجثة.. إن اللغز الذي يحيرني، هو ماذا كان اللورد "**ستافورنيل**" يفعل في هذا القطار، في الوقت الذي كان ينبغي فيه أن يكون في الجناح الخاص بفندق "**ريتز**"؟ كذلك يهمني أن أعرف كيف استطاع الشاب ذو الشارب الأسود الصغير استدراج اللورد إلى ركوب ذلك القطار.

- الشاب ذو الشارب الأسود الصغير؟ ماذا تعني بحق السماء؟

- إنك تحدثت عن ثلاثة رجال يحتمل أن يكون أحدهم هو القاتل.. ولكن القاتل الحقيقي هو رجل رابع.. هو ذلك الشاب ذو الشارب الأسود

الصغير.

إن حديثي التليفوني مع محطة "**لندن**" قد كشف لي عن أشياء كثيرة.. منها أن اللورد "**ستافورنيل**" حجز تلك المركبة في ذلك القطار بالذات في الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم بواسطة التليفون، وأنه وصل إلى المحطة منفرداً وغضب غضباً شديداً حين وجد أن المركبة ليست نظيفة فانتظر على الرصيف حتى تم كنسها وتنظيفها. وقال عامل النظافة إنه عندما فرغ من مهمته وجد اللورد يتحدث ويضحك مع شاب صغير الجسم وله شارب أسود، يحمل في يده معطفاً من الجلد، ولما كان الرصيف مزدحماً بالمسافرين، فإن أحداً لم يبد اهتماماً خاصاً بذلك الشاب، فلم يعرف عامل النظافة أين ذهب، أو متى ذهب ولم يره بعد ذلك، ولكنني أعرف أين ذهب يا سيد "**ناركوم**" بل وأعرف كذلك ماذا كان في ذلك المعطف. كان فيه مسدس هواء، ومطرقة ملفوفة بقطعة من القماش استخدمت في تحطيم نجفة الكهرباء دون أن تحدث صوتاً. وقد ركب الشاب – ذو الشارب الأسود – مع اللورد في نفس المركبة.

– هب أن ذلك صحيح فكيف خرج من المركبة؟ وإلى أين ذهب؟وماذا كان مصير المعطف الجلد؟

– أرجو أن أتمكن من الإجابة عن هذه الأسئلة قبل انقضاء هذه الليلة يا سيد "**ناركوم**"... أما الآن. فدعنا نلقي نظرة على الجثة.. فإنني أريد أن أقطع الشك باليقين في أمر يقلقني.

وكانت المركبة قد حولت إلى خط جانبي. ووضعت تحت حراسة البوليس.

وعلى ضوء المصابيح الكشافة القوية التي أعدها ناظر المحطة استطاع "**بوارو**" أن يرى شيئاً فاته عندما فحص المركبة بسرعة في المرة الأولى، أو لعله لاحظه ولم يعقب عليه.

رأى في البساط الأحمر الذي يغطي أرض المركبة بقعة حمراء داكنة في حجم الطبق، أمام المقعد الذي يقع في مواجهة مقعد القتيل.

قال وهو يشير إليها:

- أظن أن هذه البقعة دليل كاف على أن المركبة كان بها شخص آخر عدا اللورد "ستافورنيل".. وهذا الشخص هو بغير شك ذاك الشاب ذو الشارب الأسود الصغير.

إذا وضعت يدك على هذه البقعة فستجد أنها رطبة.. من أثر الثلج الذي علق بحذاء شخص جلس على هذا المقعد بالذات.

انظر.

ومر بمنديله على البقعة ثم بسط المنديل فإذا به قد تلوث بالوحل.

فقال المفتش:

- ولكن يا صديقي العزيز.. من الممكن في يوم كهذا، أن تكون هذه البقعة قد حدثت قبل سفر اللورد.. إذ لا يعقل أن يكون اللورد هو الشخص الوحيد الذي دخل هذه المركبة منذ الصباح.

- المفروض أنه الشخص الوحيد الذي دخلها بعد كنسها وتنظيفها.. ولقد كنست المركبة ونظفت تنفيذاً لأوامره قبل أن يتحرك القطار.

إننا الآن قد تجاوزنا مرحلة التخمين.. وأصبحنا على يقين من أن شخصاً آخر كان موجوداً مع اللورد في هذه المركبة.. وأن اللورد كان يعرف هذا الشخص ويرتاح إليه ولا يجد ضرورة لمجاملته.

- وكيف عرفت ذلك؟

- من هذه الصحيفة. لقد كان اللورد يقرأ هذه الصحيفة عندما أطلقت عليه الرصاصة... انظر إلى هذا الثقب الذي في طرف الصحيفة.

عندما يدعو الإنسان شخصاً آخر للسفر معه في المركبة التي استأجرها خصيصاً لنفسه- وهذا ما فعله اللورد دون شك، ولولا ذلك ما جرؤ الشاب على دخول المركبة- أقول عندما يدعو الإنسان شخصاً آخر للسفر معه في مركبته الخاصة، ثم يشرع في قراءة الصحف بدلا من أن يجامل ذلك الشخص ويعامله كضيف، فذلك دليل على أن الصلة بين الاثنين قديمة ووثيقة إلى الحد الذي

يجعل اللورد يغض الطرف عن مجاملة ضيفه. دون أن يجد الضيف في ذلك مهانة له.

والآن. انظر إلى الصحيفة كيف سقطت بين قدمي اللورد.. إنها مقوسة حول ساقه اليسرى، وحتى لو لم نجد المفتاح.. لكان وضع الصحيفة على هذا النحو كافيًا لإرشادنا إلى الجهة التي خرج منها القاتل.

- كيف؟

- إن الصحيفة حين سقطت من يد القتيل، ما كانت لتتخذ هذا الوضع لولا حدوث تيار هوائي قوي. وقد جاء هذا التيار من فتح الباب الذي يقع على يمين القتيل، وكان من القوة بحيث جعل الصحيفة تلتف حول الساق.

وهذا دليل على أن الباب فتح أثناء سير القطار ومن ناحية أخرى فإننا لا نرى أثراً للبارود على جبين القتيل، ولا رائحة للبارود في فوهة المسدس، وعلى الرغم من أنه مسدس أمريكي عادي عيار 38، وكل هذا دليل على أننا أمام قاتل هاو، لا مجرم محترف. قاتل من السذاجة بحيث يتوقع الانتهاء من هذه القضية قبل انقضاء هذه الليلة.

وإني لأتساءل، لماذا لم يطلق هذا المسدس في صباح اليوم مثلا لكي تظل فوهته محتفظة برائحة البارود؟

ليس من الضروري أن يكون الإنسان على جانب عظيم من الذكاء لكي يدرك على الفور أن الجريمة ارتكبت بمسدس هواء. وأن اهتمام القاتل بارتكاب جريمة دون أن يحدث جلبة، كان أكثر من اهتمامه بارتكاب الجريمة بحكمة وتعقل.

إنني أعتقد أنه لا يوجد في "لندن" كلها أكثر من ثلاثة محلات لبيع مسدسات الهواء، ولا أظن أن هذه المحلات تبيع أكثر من مسدسين في العام.. ولكنها إذا كانت قد باعت أو أصلحت مسدساً خلال الشهور الستة الأخيرة، فإن صديقي "هاستنجز" سيعرف ذلك وسيخبرنا... إنني اتصلت به، وطلبت إليه القيام ببعض التحريات..

والآن يا عزيزي السيد "**ناركوم**"، أما وقد ثبت لنا أن القاتل إنسان ساذج قصير النظر، فإنني لا أستبعد أن يكون قد غفل عن تفتيش ضحيته.. فدعنا نحن نقوم بهذه المهمة.

قال ذلك وانحنى فوق القتيل، وراح يفتش ثيابه، وما لبث أن أخرج من أحد جيوبه الداخلية دفتر مذكرات، وثلاث رسائل بخط نسائي، ولكن رسالة واحدة فقط من بين هذه الرسائل هي التي لفتت نظره، وأثارت اهتمامه، فراح يفحصها بعناية.

كانت مكتوبة على ورقة وردية اللون، وغلافها يحمل خاتم البريد "**كرويدن**" بتاريخ 9 كانون الأول (ديسمبر)، الساعة الثالثة والنصف مساء، وعبارة (بالبريد المستعجل).

- 4 -

قرأ "**بوارو**" في الرسالة ما يلي:

«أيها الغبي الكبير... إن الحفلة التنكرية موعدها الليلة لا غداً. لقد اكتشفت ذلك فجأة. فتعال بسرعة بالقطار الذي يغادر "**لندن**" في الساعة الخامسة والدقيقة 28 وحذار من التأخير، لأنني سأكون في انتظارك بالمحطة عند وصولك ولا تهتم بالثوب التنكري، فعندي لك ثوب، وقد دبرت لك مقابلة مع شخص سوف تضحك كثيراً عندما تراه.. أحرق هذه الرسالة.

"**فيفي**"

ملحوظة: «إني جرحت أصبعي، وقد استكتبت وصيفتي هذه الرسالة، ولذلك أطلب إليك أن تحرقها ولا تحتفظ بها».

قال "**بوارو**" وهو يقدم الرسالة إلى المفتش "**ناركوم**":

– هذه الرسالة توضح كل شيء وتفسر لنا لماذا سافر اللورد بهذا القطار.. إنها فخ لاستدراجه.

فصاح "ناركوم" :

- فخ نصبته "فيفي"!! يا إلهي!! لقد خطر لي منذ البداية أن لها أو لزوجها يدا في هذه الجريمة.

فقال "بوارو" وهو يبتسم:

- أحقًا؟ إن ذلك لم يخطر لي... ولا يخطر لي الآن.

فنظر إليه "ناركوم" في ذهول، وهم بأن يقول شيئًا.. ولكنه لم يفعل.. فقد أقبل عليه أحد رجال الشرطة في تلك اللحظة وقال له:

- جاءت سيدتان ورجلان وهمً يطلبون التصريح برؤية الجثة للتعرف على صاحبها.. ها هي أسماؤهم في هذه الورقة.

فتناول "ناركوم" الورقة وقرأ الأسماء بصوت مسموع:

الليدي "ستافورنيل"

السيدة "برنكويرث"

الكابتن "كروفورد"

الكولونيل "مرشيسون"

ونظر إلى "بوارو" متسائلا فقال هذا:

- هل تعرف من أين قدموا؟

- نعم، عرفت ذلك عندما أبرقت إليهم بنبأ مصرع اللورد "ستافورنيل" كانت الليدي وأبوها قد ذهبا إلى فندق "هايدور" منذ أسبوع لقضاء إجازة عيد الميلاد، ومن المصادفات الغريبة أن السيدة "برنكويرث" والكابتن "كروفورد" قد ذهبا أيضًا إلى نفس الفندق لنفس الغرض منذ يومين... ولا شك في أنها كانت مصادفة غير سارة بالنسبة إلى السيدتين.. لأن العلاقة بينهما ليست على ما يرام.

فقال "بوارو" :

- هذا أمر طبيعي. فإحداهما تمقت القتيل والأخرى تحبه...

- إنني أريد مقابلة هاتين السيدتين.. كذلك الرجلين.. وبعد ذلك..

وكف عن الكلام، ونظر إلى النجفة المهشمة، وقطب حاجبيه، وحك ذقنه بيده، واستغرق في التفكير.

فقال "ناركوم" :

- هل ثمة مشكلة تشغل بالك، هل أستطيع مساعدتك؟ إنني بارع في حل المشكلات.

- أحقًا؟ إذن أخبرني.. إذا كانت هناك مائدة خشبية على طرفها جسم يتراوح ثقله بين 50 أو60 كيلو جرامًا وتحتها قوة ماصة تبلغ في المتوسط كيلو جرامًا للبوصة المربعة... فما هي القوة اللازمة لجذب هذه المائدة مسافة مترين؟

إذا وجدت جواب هذه المسألة، فإنك ستضع يدك على القاتل.. ومتى وضعت يدك عليه، فإنك ستجد أنه ليس كأي رجل رأيته أو سمعت عنه طول حياتك.

فحملق "ناركوم" إلى وجهه ولم يفهم شيئًا..

وابتسم "بوارو" ابتسامة غامضة وقال:

- دعهم يدخلون.

وتوارى في أحد الأركان بعيداً عن دائرة الضوء.

ودخل الموكب الحزين إلى مسرح المأساة.. تتقدمه الليدي "ستافورنيل" بقامتها الطويلة الرشيقة، ومحياها الجميل وعلى وجهها من دلائل الهدوء والسكينة ما يبدو على وجه إنسان تعذب طويلا، ثم واتته ساعة الخلاص أخيرًا.

وتبعها الكابتن "كروفورد" بوجهه الشاحب، وعينيه الزائغتين، وشاربيه السوداوين الصغيرين.

ثم السيدة "برنكويرث" بقامتها القصيرة، وجسمها الضئيل، ووجهها الملائكي الصغير، وعينيها الحمراوين من الحزن والبكاء.

وأخيرًا دخل الكولونيل "مرشيسون"، بكتفيه العريضتين وعنقه الغليظ.

ووقف "بوارو" في ركنه ساكنًا صامتًا يرى ويسمع ويرقب ولا ينطق بكلمة.

وأخيراً، ألقى بيده على كتف المفتش "ناركوم" وقال له في همس:

– احجزهم جميعًا هنا بأية وسيلة، لمدة خمس وأربعين دقيقة.. قلت لك إن القاتل إنسان ساذج، وإن سذاجته وأخطاءه ستساعدان على إنهاء التحقيق في هذه القضية الليلة.

سأعود إليك بعد 45 دقيقة وسيكون القاتل معي هنا..

قال ذلك ودار على عقبيه، وغادر المركبة بسرعة، دون أن يتيح لـ"ناركوم" فرصة للكلام.

تمّت بعون الله

هذه هي أسماء وأرقام الروايات التي يمكنكم طلبها...

سارع في إرسال طلبك !

1	ابنة الفراعنة	23	جريمة على ضفاف النيل
2	جريمة الفندق	24	الجرائم الثلاث
3	أخطاء القضاء	25	جريمة في بيت الطالبات
4	أدلة الجريمة	26	جريمة في الجو
5	الجزيرة العجيبة	27	جريمة في الصحراء
6	أصابع الاتهام	28	جريمة في قطار الشرق
7	امرأة خطرة	29	جريمة قتل
8	بيت الأحلام	30	الجريمة الكاملة
9	بواعث الجريمة	31	امرأة في مأزق
10	بيت الأهوال	32	الجريمة المستحيلة
11	التضحية الكبرى	33	الجريمة المعقَّدة
12	الضحية	34	الشاهدة الوحيدة
13	الحب والجريمة	35	جزيرة الموت
14	الجثة الثانية	36	جنون الانتقام
15	جثة في المكتبة	37	الحادث
16	الجريمة الأخيرة	38	الحب الذي قتل
17	جريمة أم	39	الرجل الرابع
18	جريمة فنية	40	ذات القناع الأسود
19	جريمة بلا شهود	41	ذات الوجهين
20	الجريمة تدق الباب	42	رجل بلا وجه
21	اللغز المثير	43	غانية باريس
22	جريمة عائلية	44	رصاصة في الرأس

45 رعب في المدينة
46 الزائر الغامض
47 ساعة الصفر
48 السر الرهيب
49 ساحر النساء
50 سر القصر الكبير
51 سر المنبهات السبعة
52 سيدة القصر
53 شاهد للتحقيق
54 الشاهد الصامت
55 نقطة الدم
56 الشبح القاتل
57 شرخ في المرآة
58 الشيطان امرأة
59 إخناتون
60 الطائر الجريح
61 الطائرة المفقودة
62 الطيور السوداء
63 عدو بلا وجه
64 العميل السرّي
65 العنكبوت
66 الفخ
67 القاتل الرابع
68 القاتل الغامض
69 القاتل والمقتول
70 قاتل المليونير
71 القصاص
72 القصر الرهيب
73 القضية الكبرى
74 الكأس الأخيرة
75 كلب الموت
76 ليل ليس له آخر
77 مأساة ذات ثلاثة فصول
78 الماضي الرهيب
79 الرسائل السوداء
80 المتهمة البريئة
81 المصيدة
82 نسيج العنكبوت
83 الثعلب
84 الموت المقنع
85 موعد في بغداد
86 موعد مع الموت
87 نادي الجريمة
88 الوصية المفقودة
89 الجريمة المزدوجة
90 الياقوتة الحمراء
91 جريمة بلا شك
92 غريم بوارو
93 وجه من الماضي
94 خاتمة المأساة
95 الحصان الشاحب